ذكريات

سعد . عبد العزيز

ماهر ورفاقه في ثورة سنة ١٩١٩

تصرفات حكومية

بقلم

الدكتور يوسف نحاس

دار النيل للطباعة
١٩٥٢

إلى الذين يروضون أنفسهم على الحقائق
وإن آلمتهم صدمتها .

أقدم هذه الذكريات

يوسف نحاس

القاهرة فى أغسطس
سنة ١٩٥٢

الباب الأول

سعد والوفد المصري

١ — كيف عرفت سعداً

عرفت الزعيم الخالد سعد زغلول عام ١٨٩٦ لما كنت طالبا بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة وكان المغفور له والدى فتح الله نحاس بك يحدثنى عن متانة أخلاق الرجل وعن فرط ذكائه حديثاً جعلنى مشوقا للقائه .

عرف والدى سعداً فى ظرف غريب . كان لوالدى شريك من أعيان الريف فى أطيان رفعت بشأنها قضية عليهما فتولى الدفاع فيها عن خصمهما المحامى (سعد زغلول) . خطر لشريك والدى أن يقدم لسعد مبلغاً من المال حتى يتساهل فى المرافعة . فلما فاتح والدى فى ذلك نهره وقال له : هذا عمل مخالف للذمة لا يرضيه . إلا أنه أصر وذهب إلى سعد يعرض عليه المبلغ فلقى منه ما يستحقه من الزجر والتعنيف . فندم على فعلته وقال : ليتنى سمعت نصيحة شريكى فتح الله نحاس بك الذى أراد منعى فلم أمتنع وجئتك على غير علم منه .

ولما ذهب والدى إلى سعد معتذراً عن تصرف شريكه ، تأثر سعد وجمع الخصوم وأزال ما بينهم بالصلح ورد لموكله ما كان قد دفعه له من أتعاب مقدمة .

٢ — سعد يؤدى امتحان الليسانس فى باريس

فى صيف عام ١٨٩٧ قابلت سعداً فى باريس وكنت أتأهب لتأدية أول امتحان فى دكتوراه العلوم الاقتصادية والمالية . فسألنى عن موعد امتحانى ليكون حاضراً معى . فلما اجتزته بتفوق هنأنى عليه الممتحنون وقف سعد وقبلنى أمامهم فرحاً لما ناله شاب مصرى كان والده من أصدقائه . وكان سعد قد حضر إلى باريس ليؤدى امتحان الليسانس فى الحقوق ، فذهبت معه لأشهد امتحانه وكان ممتحنه فى القانون الجنائى من فطاحل أساتذة فرنسا له مؤلفات مشهورة فى هذه المادة ، وكان

سعد قد طالعها فوجد فيها للأستاذ رأياً فى مسألة خلافية لم يتفق ورأيه هو ، ولم يكن السؤال الموجه إليه من الممتحن خاصاً بهذه المادة ولكنه تدرج فى إجابته بمهارته حتى نقل الحديث إليها فقال للمتحن : لكم فى هذه المسألة رأى تعززونه بحجج سردها له ، ولكن أنا لى رأى آخر . وأخذ يعزز نظريته ببراهين قوية فجاوز فى شرحه الزمن المخصص لكل طالب فى امتحان الليسانس . وكان سائر الأساتذة الممتحنين قد حضروا فبقوا جميعاً يستمعون لبيان سعد بكل تنبه ، وعلامات الاستغراب بادية عليهم من رجل يتقدم إليهم ليمتحنوه وهو لا يقل عنهم غزارة مادة !! يتكلم الفرنسية بصعوبة ولكن اللفظ يؤدي المعنى تماما .

فلما انتهى من شرحه سأله الأستاذ الممتحن : من أى بلد أنت ؟ فأجابه : أنا مصرى . فسأله : وماذا تعمل فى مصر؟ فرد عليه : أنا مستشار فى محكمة الاستئناف . فقال : إنى أهنىء محكمة الاستئناف المصرية بمستشار مثلك . فصفقت وتهللت مع الحاضرين من مواطنينا ، ولعلها كانت أول مظاهرة لسعد وأحبها إلى قلبه .. وإن الذى دفع سعد إلى أن يتقدم وهو مستشار لينال شهادة الليسانس من كلية الحقوق فى فرنسا هو ما جرى بينه وبين مستر بوند الذى كان وكيلا لمحكمة الاستئناف الأهلية من جدال عنيف فى مسألة قانونية اختلفا فيها رأيا ، فقال بوند لسعد : إنك لا تستطيع أن تبدى فى هذه المسألة رأياً سديداً لأنك لم تعرف اللغة الفرنسية ولم تدرس الحقوق . فكفى هذا التحدى باعثاً على أن يتعلم سعد اللغة الفرنسية ويحصل على شهادة الحقوق من كلية باريس وهو مستشار .

وأذكر أنه أخذ يتعلم اللغة الألمانية وهو شيخ جاوز الستين من عمره .

٣ – قانون التعاون فى الجمعية التشريعية

قبل وقوع الحرب الكبرى الأولى

عرضت الحكومة على الجمعية التشريعية مشروع القانون الذى كانت قد وضعته لإنشاء التعاون الزراعى فى البلاد تلبية لرغبة الأمة الملحة فألفته الجمعية غير واف بالحاجة وغير مؤد إلى النجاح لما وضع فيه من قيود ثقيلة أملاها خوف المحتلين من أن تتحول النقابات الزراعية إلى هيئات سياسية . ولذلك لقى المشروع معارضة قوية من سعد وصحبه ، فقرر المجلس تأليف لجنة من أعضائه لإعادة النظر فيه . وكان سعد رئيسها فدعانى وقال لى : أود أن تعاوننا فى هذا الشأن الوطنى العظيم وأنت دكتور فى العلوم الاقتصادية والمالية وأرجو أيضاً أن تعيرنى ما عندك من مؤلفات حديثة خاصة بالتعاون والنقابات الزراعية لأنى خالى الذهن من كل ذلك ، فأعطيته ما كان عندى من كتب . واجتمعت اللجنة بعد ذلك بأيام قليلة ، فكم كانت دهشتى عظيمة إذ رأيت سعداً قد ألم بشؤون التعاون إلمام الأستاذ المتخصص . وكأنى به أيضاً قد استظهر الكتب الضخمة التى لم أقدمها له إلا منذ بضعة أيام !....

سلخنا أسابيع عدة فى درس الموضوع وتعديل المشروع أو بالأحرى تغييره برمته وتقدمت اللجنة للمجلس بمشروعها الجديد ، ولكنه ارتطم بصخرة الإرادة الانكليزية فطوى ولم نعد إلى مسألة التعاون الزراعى إلا بعد الحرب الكبرى الأولى ، لما أسندت وزارة الزراعة إلى المغفور له فتح الله بركات باشا . فعكفنا على وضع أسس النظام الاقتصادى الزراعى التى أنشئت عليها الجمعيات التعاونية القائمة الآن .

٤ — فتح الله بركات باشا

أما وقد تطرق بى الحديث إلى ذكر المغفور له فتح الله بركات باشا يقتضينى واجب الوفاء أن أنوه بمناقبه وقد ربطتنى و إياه أواصر وثيقة من الألفة والود الخالص وساهمت معه فى حل أكثر من معضل اقتصادى وزراعى فألفيته ـ وهو الوزير الفلاح الذى لا يجيد التكلم إلا باللغة العربية ـ من أوائل الرجال الذين خدموا الاقتصاد الزراعى نائباً ووزيراً .

وكان من أبرز مقومات شخصيته سرعة البادرة وحدة الذكاء ، والهمة الطامحة الوثابة والتحرر مما يسمونه الروتين الحكومى حين يبدو له رأى يرى فى الأخذ به تحقيقاً لمصلحة عامة . ولم يستنكف، أن يحيط نفسه بأهل الذكر المتخصصين من مختلف الهيئات والشخصيات يستمد معونتهم و يستنير برأيهم و يعمل بمشورتهم .

و يحضرنى من تصرفاته الجريئة حادث إن دل على شىء فإنما يدل على مقدرة فائقة وحزم فى تصريفه للأمور — كانت لجنة حكومية قد أعدت مشروع التعاون الزراعى الآنف ذكره وقطعت فى تحضيره عدة جلسات ، بيد أن الوزير فكر فى أن يضم إلى تلك اللجنة بعضاً من الذين توسم فيهم الكفاية ، منهم الأستاذ عزيز خانكى بك والمرحوم حسن سعيد باشا وكاتب هذه السطور . وما إن تصفحنا المشروع المعروض علينا حتى ألفيناه لا يفى بالغرض المقصود منه فلم نقره ، فرغب إلينا فتح الله بركات باشا فى أن ننفرد بدراسته و إدخال ما نراه من تعديلات عليه ، فعقدنا من أجل ذلك عدة جلسات فى مكتب حسن سعيد باشا ووضعنا مشروعا جديداً كان هو الذى تقدم به الوزير إلى البرلمان لإقراره كما سبق القول .

وفى ذات يوم كنت مع فتح الله باشا نتبادل الرأى فى الشؤون القطنية فصارحته بأن من أهم العوامل وأفعلها تأثيراً فى حماية الأسعار معرفة المخزون من القطن فى نهاية كل

مومسم ، وقد طالبنا مراراً بإحصاء دقيق لذلك المخزون فأبت علينا ذلك شركة المحاصيل في إصرار متذرعة بأعذار واهية ذكرتها لمعاليه وفندتها عذراً عذراً ، فدفع إلى ورقا وقلما وقال : اكتب لرئيس شركة المحاصيل أن الوزارة مصرة كل الإصرار على إجراء جرد شامل للمخزون من القطن تحقيقاً للمصلحة العامة ، وأنها قد ندبتك للاجتماع بمجلس إدارة شركة المحاصيل لتقرير الخطة المثلى التي يجب أن تتبع في حصر المقادير المتخلفة من محصول كل عام . فحررت الخطاب بمكتب معاليه وهممت بالانصراف ، ولكنه استبقاني واستدعى سكرتيره ودفع إليه بالخطاب الذي قد حررته طالباً إليه أن يبيضه ويسجله ويحضره تواً للتوقيع عليه ثم سلمني الخطاب الرسمي فسافرت إلى الإسكندرية وأطلعت رئيس شركة المحاصيل عليه ، فما كان منه إلا أن جمع المجلس وانتهت المناقشة التي جرت فيه بقبول عمل الجرد وقد نفذ فعلا ... جرى كل هذا في أقل من أسبوعين ، فما أحرى وزراءنا أن ينهجوا نهج فتح الله باشا في البدار وسرعة القرارات والتنفيذ والاستعانة بأولى الرأي والذكر من صفوة رجال الأمة وعلمائها .

ومن مفاخر المرحوم فتح الله باشا الكبرى نجاح المؤتمر القطني العالمي الذي عقده في القطر المصري سنة ١٩٢٧ « الاتحاد الدولي لجمعيات أصحاب مغازل القطن ومعامل صنعه » نجاحاً منقطع النظير حتى إن المؤتمرات التي أقيمت عندنا بعد ذلك والتي شهدناها في البلدان الأخرى لم تبلغ في نجاحها الشأو الذي بلغه . وقد ساهم في تحقيق ذلك النجاح العظيم صديقي فؤاد أباظه باشا المدير العام للجمعية الزراعية الملكية الذي اختاره آنئذ فتح الله باشا سكرتيراً للمؤتمر منوطاً به تنظيم الاجتماع ، فأظهر براعة نادرة بز بها جميع المنظمين الأوربيين وتجلى بهاء المؤتمر في الموضوعات التي نوقشت فيه وهي مدونة في مجلد أعماله كما تجلت فيه بهجة الاحتفالات التي شهد فيها الغزالون أجمل وأكمل مظاهر الكرم الشرقي والذوق السليم .

٥ — نشأة الوفد

يعرف الجميع كيف نشأ الوفد . كنت مع الرجال الأولين الذين فكروا فى إنشائه وكنا نقضى كل أيامنا من الصباح إلى الغروب فى بيت سعد ، لا يسمح لنا — إلا نادراً — بتناول الغداء إلا على مائدته ما لم يهرب أحدنا مرة فيلقى فى اليوم الثانى من الباشا أشد العتاب . وما كان لنا أن نشكو من هذه الضيافة الكريمة إلا من جهة تعرضنا للسمن لما كان يقدم لنا من طعام شهى مغر بالنهم !

أخذنا فى العمل وكان الوفد بحاجة إلى محرر يتقن اللغة الفرنسية فكلفنى سعد أن أبحث عن الشخص اللائق على أن يكون مصرياً إذا أمكن ، وكنت قد عرفت المرحوم جورج دومانى فى الإسكندرية وقرأت له بعض مقالات تدل على تمكنه من اللغة الفرنسية ففاتحته فى الأمر فوافق عليه وقرروا لدومانى مر بوطا قدره عشرون جنيها فى الشهر على ما أذكر . وقد ظل دومانى سكرتيراً للوفد المصرى إلى أن تألف وفد عدلى باشا يكن فالتحق به كما هو مفصل فى كتابى « صفحة من تاريخ مصر السياسى الحديث . مفاوضات عدلى — كرزن » .

اتفق على أخذ توكيلات من الأمة للوفد بأن يتولى المطالبة بحقوق المصريين فقال لى سعد : أجلس إلى مكتبى لنملى عليك صيغة التوكيل . وأخذ أعضاء الوفد الحاضرون يناقشون كل كلمة فأصحح وأعيد إلى أن وصلنا إلى الصيغة التى وقع عليها الأفراد والهيئات فكانت فتح باب العمل للوفد ، ذلك العمل الذى عكف عليه سعد وإخوانه ليلا ونهارا بلا هوادة ولا ملل ولشد ما كان عملا شاقا ومضنيا ولكن الحماسة وقوة الإيمان كانتا تكسبان العاملين جلداً لا يعرف الوهن وتلهفاً للتضحية بكل شىء حتى الحياة .

٦— سعد فى جمعية الاقتصاد السياسى

علمنا أن المستر « برسيفال » المستشار بمحكمة الاستئناف الوطنية سيلقى فى السابع من فبراير سنة ١٩١٩ محاضرة فى هذه الجمعية عن الحماية التى فرضتها انجلترا على مصر فرضا وأن المحاضر سيعالج تبرير هذه الحماية من وجهة القانون الدولى و يرتئى تعديلات اقترح إدخالها على قانون الجنايات الأهلى . فعزم سعد على سماع المحاضرة والرد على المحاضر ، فذهب إلى مقر الجمعية مع صحبه وكنت معهم ، وجلس فى الصف الأول وأجلسنى بجواره ، واكتظت القاعة بالشبان المصريين وجم غفير من رجالات القانون والعلم مصريين وأجانب ، فلما انتهى المحاضر من الكلام انبرى له سعد مفنداً أسانيده و براهينه بعبارة عربية مرتجلة جميلة ومنطق بديع أثار عواطف الحاضرين فدوى المكان بالتصفيق الحاد المتواصل واغرورقت عيناى بالدموع من شدة التأثر . وهذه الحادثة مشهورة لا أرى أن أطيل فى شرحها ، إنما أذكر أن مجلة « جمعية الاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع » التى نشرت محاضرة « برسيفال » بنصها منعت من نشر رد سعد باشا عليها ، مخالفة بهذا المنع تقاليد الجمعية وذلك بأمر الرقابة البريطانية على النشر . ولكن أقوال سعد نشرت وقرأها الناس مائة مرة أكثر مما كانوا يقرأونها لو كانت قد نشرت فى المجلة .

ولعل هذا الحادث كان فتح الباب لما ألقى بعد ذلك من خطب حماسية وطنية كان لسعد باشا فى مضمارها القدح المعلى ، فما كان أجمل صوته وأحلى أسلوبه وأقوى حججه ! إننى لم أسمع خطيباً عربياً أفصح منه وأشد تأثيراً فى الأنفس .

٧— من مظاهر تعلق عبد العزيز بسعد

أذكر أنه فى مساء ذلك اليوم كان عزيز بحرى يحيى حفلة ساهرة فى منزله

بجاردن سيتى وسألنى أن أدعو إليها سعد باشا وصحبه من رجال الوفد وأن ألح عليهم ، فلم يترددوا فى تلبية الدعوة ، وكانت حفلة لطيفة ألقى فيها عبد العزيز فهمي خطابا بليغاً مشيداً بمزايا سعد ، ومظهراً شدة تعلقه به ، وكان يستهل كل جملة من الجمل التى يصف بها مناقب سعد باشا بقوله : إن سعد زغلول ... إلخ وكرر ذلك مراراً ، وفى المرة الأخيرة قال : إن سعد زغلول ... وتوقف قليلا ليجد ما يقوله ، فأسرعت زوجتى وصاحت : إن سعد زغلول يحب أكل الفول ! فقهقه الباشا وأجابها من فوره وبسرعة خاطره المشهورة : نعم ياسيدتى وهذا من مفاخرى إنى أحب هذا الطبق الوطنى اللذيذ ..! ثم أرادت زوجتى أن تصلح ما قد يكون فى عبارتها الأولى من عدم الكلفة فرفعت كأساً وقالت بالفرنسية :

"Je bois au grand Conducteur des foules, je bois à Saad Pacha Zaghloul"

« أشرب نخب قائد الجماهير العظيم ، أشرب نخب سعد باشا زغلول » .

وعلى ذكر خطبة عبد العزيز التى أطرى بها سعداً أقول إنه كان يحب الباشا حباً خالصاً ويقدره أعظم تقدير ، وكانت له فى نفسه مكانة خاصة من الإجلال والاحترام ، فكان لا يتسامح مع أحد فى أن يذكر سعداً حتى على سبيل المزاح بغير عبارات التجلة ، ويحضرنى حادث صغير يؤيد ما أقول :

لما كنا فى باريس سنة ١٩١٩ عاد عبد العزيز فهمى ذات يوم إلى المنزل الذى نقطنه معاً وهو يحمل رسماً شمسياً كبيراً لسعد موقعاً عليه بخطه وإمضائه إنه مهدى إلى صديقه يوسف نحاس ، وأنا محتفظ بهذه الهدية الكريمة ، فعندما سلم عبد العزيز الرسم إلى زوجتى لغيابى عن المنزل آنئذ قائلا لها إنه يحمل لى أثمن تذكار من الباشا ، أجابته مازحة : وما أهمية هذا التذكار ؟ فاندفع مسترسلا فى تأنيبها على هذا الكلام الذى لا يجوز أن يقال حتى ولو على سبيل المزاح . فما أقسى القدر حين يفرق بين

أعز الأصدقاء !! ولعن الله السياسة إذا كانت تؤدى إلى القطيعة بين أكرم الناس وآحفظهم للعهد !.

إن ابتعاد عبد العزيز عن سعد عقب ما كان بينهما من ود متين ، وجهاد مشترك مجيد فى الجمعية التشريعية لتحرير مصر من ربقة الاحتلال الأجنبى ، هذا الابتعاد كان من أشق الأمور على نفسى ، وأشدها تنغيصاً لحياتى ، وقد فشلت كل مساعىّ ومساعى غيرى وهم غير قليل لإعادة المياه إلى مجاريها بين شخصين احتلا من قلبى أكبر مكان ، ولهما فى تقديرى أرفع شأن . وستأتى أسباب الخلاف مفصلة فى موضعها .

٨ — وفاء سعد

فى عام ١٩١٨ سرق سير وابور رى من إحدى عزبى ، وتولت نيابة فاقوس التحقيق ، وإذ كنت فى محطة « أبو كبير » التقيت بوكيل نيابة فاقوس وكان ذاهباً إلى بلبيس ، فلما وصلت إلى فاقوس أخبرنى وكيلى أن تحقيق النيابة قد تم فى نفس ذلك اليوم ، وأفرج عن المتهم لعدم ثبوت التهمة عليه ، فقلت : من الذى أجرى التحقيق فى غيبة وكيل النيابة ؟ فأجابنى وكيلى أن حضرته يتغيب فى معظم أيام الأسبوع ويترك ختمه لكاتب النيابة الذى يقوم بالتحقيقات باسمه . فكبر علىّ الأمر وقابلت قاضى المحكمة ومأمور المركز ، فأكدا لى ما علمته وقالا : إن وكيل النيابة قد صاهر المدير حديثاً وهو يقضى معظم الوقت عند عروسه ببلبيس ، وانتهى الحادث بأن دفع وكيلى مبلغاً « حلاوة » إلى السارق فرد السير .

بعد ذلك بزمن يسير زارنى المغفور له محمد شكرى باشا فى منزلى ، وكان وقتئذ وكيلا لوزارة الحقانية . فانساق الحديث إلى تحقيقات وكلاء النيابة فى الأقاليم فقصصت على شكرى باشا ماجرى لى ورجوت منه أن يعتبر الحديث خاصاً بين صديقين

لا يؤخذ به رسميا فوعد . ولكنه لما خرج من عندى إلى نادى محمد على وجلس إلى المغفور له ثروت باشا وكان وزيراً للحقانية روى له ما سمعه منى بصفة شخصية أيضا وثروت رواه بدوره إلى السير « ما كلريث » مستشار الحقانية بالصفة نفسها ولكن المستشار أراد أن يقف على جلية الأمر فانتدب مفتشا انجليزيا للنيابات اسمه المستر « فرنر » للتحرى بطريقة غير رسمية . فذهب المستر « فرنر » إلى الزقازيق وقابل المدير وأخبره بمأموريته ورجاه فى أن يكلف مأمور مركز قاقوس وأشخاصاً آخرين ان ينتظروه فى صباح اليوم التالى . وسرعان ما خاطب المدير مأمور المركز وطلب إليه الاتصال بالأشخاص الذين سيقابلون « فرنر » ويعمل لنفى ما نسب إلى صهره وكيل النيابة . وقد نجح المأمور ونفى كل أولئك الأشخاص ما عزى إلى وكيل النيابة مؤكدين أنه لايبرح محل عمله .

كنت خالى الذهن من كل ما جرى إلى أن لقينى أحد أصدقائى من أهل فاقوس وقال لى : لماذا أوجدت نفسك فى هذا المأزق ؟ إنك اتهمت وكيل النيابة بتهمة قرر كل الذين سئلوا عنها عدم صحتها . أثارنى هذا الأمر فخاطبت فيه المغفور له ثروت باشا فقال أن المستشار أراد أن يتبين الحقيقة وإن كنت لم تبلغ عن الحادث رسميا وإنى آسف لما جرى وأثق أنك صادق وأنصح لك بمقابلة المستشار شخصيا والاجتهاد بإقناعه .

طلبت مقابله المستشار وانتظرت وقتا عند سكرتيره مكرم عبيد إلى أن أذن لى بالدخول فوجدت رجلا مقطب الوجه غير مستعد لسماع كلامى قائلا : إن المستر « فرنر » قد تحرى الأمر بدقة ، ويكفيك أننا لاننوى مؤاخذتك بالذى افتريت به على وكيل النيابة . فكان ردى عليه رداً شديدا ربما خرجت فيه عن حدود الاحترام الواجب لمنصبه ومما قلته إن وقوف المسألة عند هذا الحد لا يرضينى بل

أريد تحقيقاً رسميا فى مواجهتى ولو أفضى ذلك إلى محاكمتى فأبى وصرفنى بجفاء (١)

خرجت من عنده إلى منزل سعد باشا فلما رآنى مضطرباً سألنى عن السبب ، وما كدت أفضى به إليه حتى طلب « ما كلريث » تليفونيا وقال له أنه يريد مقابلته حالا ، ورجانى أن أبقى فى منزله حتى عودته . فلما عاد أخبرنى بالحديث الذى دار بينه و بين المستشار فقد استهله بالسؤال الآتى : أتعتقد جنابك أنى رجل صادق؟ أجابه المستشار « بلا شك » . إذن فاعلم أن صديقى يوسف نحاس مثلى تماماً فى الصدق و يستحيل أن يكون قد اختلق ما قصه على شكرى باشا فى محادثة شخصية بحتة . فأبدى المستشار أسفه لسعد باشا ووعده بأنه سيعيد التحقيق بحضورى . ولم أكن قد طلبت من سعد باشا أى توسط .

اتصل بى المستر « فرنر » وكلفنى مقابلته فى اليوم التالى برئاسة النيابة فى الزقازيق . وقد أخذ التحقيق دوراً حاداً فى الغاية انتهى بأن قال لى جنابه : إننى حزين لأننى وقعت فى الفخ والآن انجلى لى كل شىء ، واعتبر نفسى مسؤولا شخصيا عما لحق بك من ازعاج أدبى . وستقدم لك الترضية الكافية . وهذا ما وقع فعلا عند ما قابلت المستشار للمرة الثانية فاعتذر بكل أدب واتخذ مارآه من الإجراءات مع موظفيه كما اتخذت إجراءات مماثلة مع الموظفين التابعين لوزارة الداخلية .

---

(١) إن هذا المستشار الذى تنكر لى ولاقانى بجفوة و برود هو نفس المستشار الذى دعانى إليه عام ١٩٠١ لما أهديته كتابى بالإفرنسية عن « الفلاح المصرى . حالته الاقتصادية والاجتماعية » وبعد أن هنأنى بحرارة ألح علىّ فى أن أقبل تعيينى قاضيا فى المحاكم الوطنية لحاجتها إلى شبان مثقفين من أسر كريمة . فشكرته معتذراً . وهذا غير مستغرب من الانكليز فانهم ليذكرونك ويجهلون معرفتك حسب مقتضيات الظروف !

هذا مثل من وفاء سعد لأصدقائه رأيت لزاما علىّ أن أورده درساً فى الأخلاق السامية ليتدبره شبابنا . فإنما الأمم الأخلاق !

٩ – شدة اعتداد سعد بكرامته وكرامة أصدقائه

ألح علىّ المغفور له محمد باشا محمود يوما – وكنا فى بيت سعد باشا – أن أكون عضواً فى نادى « محمد على » وانضم إليه سعد باشا قائلا : يجب أن تكون معنا فى النادى ، وسأقدمك أنا مع صديق آخر لك من أعضاء مجلس إدارة النادى ، وقد رشحنى فوراً هو والمرحوم محمد شكرى باشا الذى كان آنئذ وكيلا للحقانية .

بعد مضىّ أيام رأيت حمىّ المغفور له يوسف سابا باشا داخلا علينا فى منزله وهو مضطرب فقال لى : كيف طلبت دخولك نادى «محمد على» من غير أن تستشيرنى فى الأمر ؟ إنهم رفضوا طلبك ، وإننى استقلت من النادى احتجاجا . وقع علىّ هذا الخبر غير المنتظر وقوع الصاعقة وكان صديقى عبد العزيز فهمى قد اعتاد أن يمر علىّ فى صباح كل يوم لنذهب معاً إلى بيت الأمة ، فلما علمت ماجرى رفضت الذهاب معه وقلت له فى حدة : هذا آخر عهدى بسعد باشا الذى فرط فى كرامتى ، وعرضنى لهذه الإهانة . فأسرع عبد العزيز إلى سعد ليستوضحه الأمر وما كاد يتركنى حتى طلبنى تليفونيا وقال لى : احضر حالا عند الباشا لتعلم منه كيف ذاد عن كرامته وكرامتك .

وجدت سعد باشا جالساً مع عبد العزيز فى الغرفة الصغيرة التى فيها مكتبته ، فخاطبنى قائلا : إن هذا التصرف لم يكن موجها إلى شخصك وإنما أرادت جهة ما أن تلحق بى إهانة تعرف هى أننى لا أطيقها فأوعزت إلى اثنين [1] من أعضاء مجلس

---

(١) بعد مضىّ عدة أعوام أعترف لى المرحوم عباس الدره مللى باشا أحدهما بفعلته معتذراً إلىّ بأنه أكره عليها من مولاه إكراهاً . أما ثانى الاثنين فكان المرحوم روبير رولو .

إدارة النادى بأن يصوّتا ضدك فرضخا مكرهين . وهذه هى صورة الكتاب الذى أرسلته أمس إلى رئيس النادى . ودفع إلىّ بورقة قرأت فيها « إنى أعلم أكيداً أن عدم قبول طلب يوسف نحاس بك لا يقصد به شخصيا ذلك الفاضل بل إنه إجراء تعمدت به الإساءة إلىّ ، فمن أجل ذلك أقدم لكم استقالتى من النادى » .

ومضت السنون ولم تطأ قدم سعد باشا عتبة نادى « محمد على » إلى أن اختاره الله لجواره . وقد ذهبت ضياعا جميع المساعى التى بذلت لعدوله عن استقالته ، وكان ذلك الحادث من الدوافع التى حملته على تأسيس النادى السعدى الموجود حتى الآن . حيّا الله رجال الأخلاق والكرامة !

١٠ — شاهدان آخران على دقة شعور سعد نحو أصدقائه

الشاهد الأول :

لما شرع فى اختيار أعضاء الوفد المصرى أراد سعد أن أكون منهم ، ولكن عبد العزيز فهمى عارض فى ذلك قائلا : نحن فى حاجة إلى شخص نثق به ثقة كاملة يكون من غير هيئة الوفد الرسمية ، فإذا أردنا مثلا إيفاده إلى الخارج فى أمر ذى بال استطاع بسهولة الحصول على جواز السفر ، وإذا طرأ ما يدعو أن نستودعه أوراقا هامة أو نقوداً اطمأننا إليه كل الاطمئنان ، ويوسف نحاس خير من ندخره لمثل ذلك . هذا ما قاله لى سعد باشا وسألنى رأيى فأجبته : إن ما يختاره لى صديقى عبد العزيز وتقرونه عليه يصادف من نفسى كل ارتياح . ولما فاتحت عبد العزيز فى ذلك قال لى : أعتقد أنك تكون أنفع لنا وأنت خارج الوفد للسبب الذى أبديته لهم ، ولسبب آخر لم أبده ، فإنك وأنت خارج الهيئة ستظل محتفظاً بحسن علاقتك بسعد ، مسموع الكلمة عنده ، فتفيدنا فى كثير من الشؤون . أما إذا أصبحت مرءوساً له فأنا أعرف

طبعك وطبعه ، وأخشى أن تصطدما وألا تحتمل الصدمة فنفقد معونتك لنا .

الشاهد الثانى :

قال لى سعد باشا : إنهم عرضوا علىّ ضم إسماعيل صدقى باشا للوفد ولكنى أعلم أن بينك و بينه سوء تفاهم ، فأرجأت الجواب إلى أن أقف على رأيك ، فشكرت للباشا دقة شعوره وأضفت : إننى لا أكون جديراً بالعمل معهم إذا حكمت عواطفى وميولى فى مثل هذا الموقف ، وهو موقف جلل ، فإذا رُئِىَ أن صدقى باشا يصلح لعضوية الوفد فيجب قبوله . وفى صباح اليوم التالى لما دخلت إلى مكتب سعد باشا قام لمقابلتى ومعه صدقى باشا وقال . أرجو أن تتصالحا ، فرد صدقى « إننا صديقان » وتصالحنا .

١١ — أدب سعد الاجتماعى

إدحاضاً لما كان يقوله خصوم سعد عن جفوة فى طبعه أؤكد أنه كان رجلا لا يفوته أن يؤدى شيئاً من واجباته الاجتماعية ، ولدى لإثبات ذلك عدة شواهد ، أورد منها ما يأتى :

١ — أنعم على سعد باشا عام ١٩١٨ بوسام وكنت يومئذ بعيداً عن القاهرة فكتبت إليه أهنئه فرد علىّ بهذا الكتاب وهو بخط يده :

مصر فى ٢٨ مارس سنة ١٩١٨

عزيزى يوسف بك نحاس

تلقيت خطابكم الرقيق وأشكركم عليه خالص الشكر ، و إن ابتهاجى بمثل ما ورد فيه من آيات رضى الإخوان أعظم من ابتهاجى بأكبر « نيشان » فأرجو الله دوام هذه النعمة وأن يمتعنى بلقائكم فى أسعد الأوقات والسلام

سعد زغلول

٢ — فى شهر يوليو سنة ١٩٢٠ كنت فى باريس وكان سعد باشا مع صحبه فى لندن لمباحثة اللورد « ملنر » فى القضية المصرية. فأرسلت إلى سعد باشا كتاب تهنئة بمناسبة عيد من الأعياد فورد إلى الشكر مكتوبا وموقعا عليه بيد سكرتيره الخاص كامل بك سليم. كبر على نفسى هذا الأمر وكتبت إلى عبد العزيز فهمى أقول له : إننى سأمتنع بعد الآن من التحرير للباشا فى المناسبات الاجتماعية لأدخر له من وقته فى تلاوة محرراتى ما أصبح لا يتسع حتى للتوقيع على رد يكتبه سكرتيره .فجاءنى من سعد باشا الكتاب التالى الناطق بعلو نفسه ، وكرم أخلاقه ، ودقة تقديره للواجبات الاجتماعية

١٥ يوليه سنة ١٩٢٠

حضرة صاحب العزة الفاضل يوسف بك نحاس

أطلعنى حضرة صديقنا عبد العزيز بك فهمى على خطاب وارد إليه منكم يشف عن تأثركم من كتاب أمضاه الكاتب عنى لكم بدل أن يمضى منى ، ولو أنكم تمثلتم ماضينا وتأملتم حاضرنا ما خطر ببالكم أن تتأثروا من أمر لا يمكن تصور العمد فيه بيننا ، بل كنتم تحملونه على ما حمله ذلك الصديق بعد قراءة خطابكم وقبل اطلاعى عليه مما سيفصله لكم على عادته من التدقيق والتحقيق فتعلم أن العزة فيكم تغلبت على العدالة عندكم وأنكم ضننتم بحسن ظنكم وكرم تأويلكم على من ليس لكم عنده إلا الإعزاز والاحترام .

(سعد زغلول)

وفى نفس التاريخ أرسل إلىّ عبد العزيز فهمى الخطاب التالى :

لندره فى ١٥ يوليه سنة ١٩٢٠

صديقى العزيز

أول ما تلوت كتابكم أدركت أن سعد باشا كلف الكاتب بالتحرير لكم بما أراد على فكرة أن الكاتب بعد التحرير يعرض عليه المكتوب ليمضيه . ولكن الكاتب يكون قد أساء الفهم ،وافتكر أنه مكلف بالتحرير لكم مباشرة و بإمضائه ، وفعل

كما افتكر ، و يكون سعد باشا نسى وذهب عن خاطره أن يطلب المحرر ليمضيه هذا ما خطر بفكرى ولقد تحققته إذ سألته قبل اطلاعه على خطابكم كيف أنه يصرح للسكرتير أن يكتب لكم بإمضائه ؟ فدهش من سؤالى وقال بالحرف الواحد « اننى أمضى خطاباتى لأصغر الناس و يستحيل علىّ أن يخطر ببالى أن أدع الكاتب يمضى بنفسه خطابا منى لمثل يوسف بك ، الذى هو فضلا عن كونه من أفاضل الرجال ، فانه من أصدقائى الأعزاء الذين أحترمهم ولا بد أن يكون الكاتب أساء الفهم فنتج هذا الخطأ الذى ما كنت أود مطلقاً وقوعه » عند ذلك أطلعته على خطابك وخطاب الكاتب فقال :

« إن ليوسف بك الحق فى الغضب ولكن لا حق له مطلقاً فى أن يعمل لى إنذارا ultimatum للمقاطعة بل كان أملى فيه قبل عمل هذا الانذار أن يستعلم عن حقيقة كيفية وقوع الأمر ، وعلى كل حال فإنى سأكتب إليه وأرجوك أن تكتب له أنت أيضا ، فان يوسف عزيز علىّ شأنه » . هذا ياصديقى ما كان ولقد كتبت إليك اليوم وأنا الكسول عن الكتابة .

أكتب إليك أيضا حتى تسرى غضبك الناشىء عن تلك الهفوة غير المقصودة والتى حدثت بدون علم ولا شعور من المنسوبة إليه ولعلك تقبل عذر الرجل و يستمر قلبك ، كما كان ، صافيا . والسلام عليك ورحمة الله .

عبد العزيز فهمى

عند تسلمى هذين الكتابين بادرت بالتحرير إلى سعد باشا ما نصه :

باريس فى ١٧ يوليو سنة ١٩٢٠

سيدى العزيز حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا .

لقد سررت كثيرا بكتاب معاليكم ولاشك عندى فى أنكم لم تحملوا تأثرى إلا على محمله الحقيقى وهو فرط تعلقى بالصداقة التى شرفتمونى بها من عهد بعيد .

أرجو ياسيدى العزيز أن أراكم قريباً حاملين أكاليل الظفر متمتعين بالصحة التى أتمنى لكم دوامها .

وتفضلوا بقبول تحياتى الخالصة وفائق احترامى .

يوسف نحاس

٣ — تدهورت أسعار القطن المصرى عام ١٩٢٤ تحت ضغط المضاربة الأجنبية وكان سعد باشا رئيساً لمجلس النواب فأرسلت له تقريراً أوضحت فيه مركز السوق القطنية والعوامل المفتعلة التى تخل بتوازنها مقترحاً أن تتدخل الحكومة فى الأمر لخطورته فجاءنى منه الرد التالى :

مسجد وصيف أول نوفمبر سنه ١٩٢٤

أخذت خطابكم المختص بطلب التوسط لدى الحكومة كي تدخل سوق القطن وأتأسف جد الأسف لأن ميلى من هذه المسألة ، وإن كنت لست من المختصين بها ، غير متفق مع رأيكم ، وأعلم أن وزارة المالية المختصة بها مهتمة كل الاهتمام بأمرها وأعتقد أن الحكومة لاتتردد فى الأخذ برأيكم متى تبين لها وجه الصواب فيه ، وأنتم بالطبع أقدر الناس على شرحه وتأييده ، فما عليكم إلا أن تجتهدوا فى إقناعها بصحته وفوائده والسلام .

سعد زغلول

وقد اجتهدت فعلا وأقنعت سعد باشا نفسه فى اجتماع كبير ضم عدداً من النواب والشيوخ فى منزله فأشار على وزارة المالية بالتدخل . وما أن أعلنت تدخلها حتى انتعشت السوق وعادت إلى توازنها من غير أن تحتاج الحكومة إلى شراء أى مقدار من القطن .

٤ — ويجدر بى وقد تطرقت فى حديثى إلى موضوع القطن وأسعاره أن أثبت هنا ما جرى بينى و بين المستشار المالى للحكومة المصرية عام ١٩٢١ بصدد هذا الشأن الحيوى الخطير .

ارتفعت أسعار القطن المصرى عام ١٩٢١ ارتفاعا عظيما وصل بها إلى مائتى ريال ذهبا للقنطار الواحد ، ففرضت الحكومة على كل قنطار ضريبة قدرها خمسة وثلاثون قرشا . فكتبت مقالات عدة بجريدة (جورنال دى كير) ممهورة بتوقيع « اقتصادى » انتقدت بها فرض هذه الضريبة من حيث مبادىء علم المال التى وضعت للضرائب . وكان انتقادى لفرض هذه الضريبة لاذعا شديد اللهجة مما جعل المستشار المالى البريطانى (بول هارفى) يرغب فى أن يتعرف شخصية الكاتب ، وكلف المرحوم يوسف بك خلاط البحث عن ذلك الكاتب . وكان حينئذ مشرفا على الشؤون الصحفية بوزارة الداخلية .

وما أن اهتدى إلىّ حتى أبلغنى أن جناب المستشار يرغب فى مقابلتى له ، فاعتذرت قائلا : إننى أخشى أن يخاطبنى بلهجة جافية أستنكرها منه فأكون مضطراً إلى الرد عليه بشدة لأن طبعى يأبى أن أتحمل اللهجة النابية حتى ولو كانت فى ظل الأحكام العرفية . فما كان من خلاط بك إلا أن أفضى إلى المستشار المالى بسبب رفضى ، فأجابه « شد ما أنا واهم فيما ظننت ، وأننى سألقى منه كل تكريم » فذهبت إليه فى الميعاد المحدد وأخذت أناقشه مناقشة طويلة سردت أثناءها الأسباب التى دفعتنى إلى انتقاد ما اتبعته الحكومة فى سياستها المالية والاقتصادية ، وكلها إجحاف و إرهاق للمنتجين . ولما أحرجته بمناقشتى قال : إننى غير مسؤول عن ضريبة القطن ، فإن الذى أشار بها وحبذ فرضها هو محمد باشا شفيق ، وكان أحد الوزراء فى ذلك العهد ، ثم أضاف المستشار قائلا إنه لمندهش من أن أقطع بأن أثمان القطن قد تهبط عن مستواها العالى الذى ارتفعت إليه وهو يعلم أننى من المصريين المتخصصين فى علم المال والاقتصاد ، والثابت عنده يقيناً أن هذا المستوى العالى سيظل كما هو زهاء عشر سنوات على الأقل ، فلا ضير إذن على المنتج المصرى أن يتحمل هذه الضريبة الزهيدة التى فرضت على قنطار القطن . فكان ردى عليه : « حقق الله نبوءتكم ، على أننى ما زلت أتوجس خيفة من المستقبل » وقد تحقق ما أوجست منه خيفة فى السنة

عينها ، فقد تدهورت أسعار القطن المصرى من ذروة المائتى ريال إلى ثمانية عشر ريالا للقنطار الواحد ، وكان هذا النزول الفاحش حافزاً قويا لكبار المنتجين إلى تأليف « النقابة الزراعية المصرية العامة » التى ناضلت فى سبيل القطن والمحاصيل الزراعية الأخرى نضالاً متواصلاً غير منقطع كما تبين ذلك مواطنونا من اطلاعهم على أعمال النقابة فى غضون الثلاثين عاما التى عملت فيها على خدمة وصيانة الثروة الأهليـــة والاقتصاد القومى وقد نشرتها فى مجموعة وافية .

استغرقت مقابلتى للمستشار زهاء الأربعين دقيقة ، ولما خرجت من عنده لخصت ما دار بيني و بينه من حديث ، وأرسلت الملخص إلى سعد باشافى باريس ، فجاءنى منه كتاب مؤرخ فى الرابع عشر من فبراير سنة ١٩٢١ أطرى فيه موقفى إطراء جاوز ما أستحق ، واختتمه بأننى قد استحققت تقدير الوطن ، فرددت على معاليه فى الخامس والعشرين من فبراير سنة ١٩٢١ بالخطاب التالى وهذا نصه :

لشد ما تأثرت بقدر ما تشرفت بآيات التشجيع التى حملها إلىّ خطابكم الكريم المؤرخ فى الرابع عشر من فبراير الحـالى . على أن أمجد تشجيع لى إنما هو المثل الرائع للتضحية ، ذلك المثل الذى تضر بونه أنتم والملأ الأكرمون من صحبكم الأماثل أعضاء الوفد ، لا للمصريين فحسب بل للعالم بأسره . وقد وهبتم أنفسكم للقضية النبيلة التى وكل إليكم تبعة الدفاع عنها ، وتتقبلون راضين مختارين ما يشق على أنفسكم وقد افترقتم عن ذويكم واغتربتم عن أرض الوطن المفدى . وأنت يا عزيزى الباشا تتحامل على صحتك وليست فى أحسن حالها . على أنك تستطيع دون كد ولا جهد أن تتبوأ وعن حق وجدارة أرفع مكانة وتحظى بأسمى تشريف فى بلادك رمزاً لأسمى الصور الوطنية أمام العالم الدولى . إنك قد تقبلت بشجاعة باسمة أظلم معاملة جائرة ، وقامرت بصحتك فى جو لا تطيقه من أجل أن تصبح مصر حرة . وأنهـا دون شك لتصبح حرة عاجلا أو آجلا ، وهذا ما تدين به نفسى وتعتقـده . ولا يخالجنى شك فى أن القضايا العادلة سيعقد لها فى النهاية لواء النصر . وفى ذلك اليوم

ستنتشى بفرح مسكر لا يعدله فرح ، إذ نرى جهادك يحقق لأمة بأسرها الحرية والاستقلال والحياة . و إن تمنياتى ووجدانى لم يفارقا ركابك لحظة ، وما امتناعى عن الكتابة إليك إلا ضناً منى بأوقاتك الثمينة أن أختلس منها شيئاً لنفسى . وأتمنى على الله أن أراك مع إخواننا قريباً فى مصر أو باريس فى شهر مايو المقبل رافلين فى أبهج أثواب الصحة والعافيه ، كما أرجو أن تذكر دائماً أننى فى كل شأن — عاما كان أو خاصاً — رهن أمرك ، وأن ولائى لشخصك لا ولن يتغير .

يوسف نحاس

فيما ذكرت الكفاية للدلالة على أن سعداً كان قدوة حسنة ليس في الوطنية وحدها ، بل فى الآداب الاجتماعية أيضا. وما أحوجنا إلى احتذاء حذوه فيهـــا . فكم من تهنئة أرسلتها لوزير أو كبير فلم أتسلم عنها جوابا ، وكم من اقتراح قدمته عن شؤون هامة فلم يتفضل علىَّ من أرسلت إليه بكلمة شكر أو حتى بما يشعرنى بوصوله إليه .

وقد يطول بى الشرح لو أردت أن أسرد كل ماصادفنى فى هـذه الناحية من تقصير لا يمتد فقط إلى ماتقتضيه المجاملات الاجتماعية ، بل يمتد إلى مايفرضه الواجب مما يجعلنى أبادر فأذكر — على سبيل المثال — أننى توليت جمع وطبع « جهود النقابة الزراعية المصرية العامة فى ثلاثين عاماً » فى سفر ضخم من القطع الكبير بلغت صفحاته زهاء الخمسمائة . أهديته إلى أهل الذكر و إلى الفنيين المتخصصين فى شؤون الزراعة والمال والاقتصاد ، مرفقة كل نسخة بخطاب رقيق جاء فى آخره (ومع أفادتنا — إذا تكرمتم — علما بوصوله أرجو أن تتقبلوا تحيات المخلص « يوسف نحاس » السكرتير العام للنقابة الزراعية المصرية العامة) و بالرغم من هذا الرجاء لم يصلنى من نصف حضرات الذين أهديت إليهم هذا السفر حتى ولا مايشعرنى بأنه وصل إلى أيديهم . وهو تصرف فى الحقيقة مؤلم للنفس .

على أنه إذا كنت قد نوّهت فى غيرموضع من هذه الصفحات بما صادفنى من

مجافاة بعض الرجال الرسميين و بعض الأقطاب المعروفين لمقتضيات المجاملة الواجبة بغية إصلاح هذا النقص فينا فلا يجوز أن نطلق هذا النقد على جميع كبار رجالنا الرسميين فان منهم من هم متحلون بأرق صفات الأدب الاجتماعى ، ومحافظون على عدم التقصير فيه مهما كانت شواغلهم .

فقد بادرت فى ١٩٥٢/٧/٢٥ بتهنئة الرئيس على ماهر لقبوله رياسة الوزارة فى هذه الفترة العصيبة الفاصلة بين عهدين فى تاريخنا الحديث ، معفيا أياه من عبء الرد نظراً لما يكتنفه من صعوبات تقتضيه الانصراف بكليته إلى التغلب عليها ، إلا أن تقاليده العليا فى المجاملة أبت عليه إلا أن يرسل هذا الرد الذى أثبت هنا نصه :

عزيزى الفاضل الدكتور يوسف نحاس

كان لكتابكم الرقيق أبلغ الأثر فى نفسى ، و إنى لمقدر لحضرتكم كل التقدير شعوركم الكريم ، وعاطفتكم الطيبة ، وأدعو الله أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير الوطن العزيز .

وتقبلوا خالص تحياتى وأطيب تمنياتى . المخلص

١٩٥٢/٧/٣١ على ماهر

كذلك أرسلت التلغراف التالى نصه إلى حضرة الدكتور بهى الدين بركات الوصى على العرش :

« الهناء لمصر، لقد تجدد بكم سعدها، وانتعشت آمالها .. دمتم ودام لكم التوفيق »

فجاءنى الرد فوراً فى ١٩٥٢/٨/٤ تلغرافياً بالنص الآتى :

الدكتور يوسف نحاس .. أشكركم جزيل الشكر .

بهى الدين بركات

٥ — اعتدى معتد أثيم على حياة مصطفى النحاس ، ولكن الله سلم ، وكنت فى فاقوس فأرسلت إليه تلغرافاً مطولاً جداً أظهر فيه استيائى من بشاعة هذا الاعتداء وسرورى العظيم بنجاته . فلم يصلنى أى رد . ثم بعد ذلك بزمن أوعز إلىَّ أحد زملائه الوزراء هو المغفور له أحمد حمدى سيف النصر أن أهنئه بمناسبة أخرى فاعتذرت

وذكرت له السبب ، فلما خاطبه فى هذا الشأن نادى سكرتيره الخاص وسأله عن البرقية التى بعثت بها إليه ، فقال السكرتير إنه حفظها ولم يعرضها على الرئيس لأنه (أى السكرتير) لا يعرف مرسلها فأهمل الرسالة .

٦ — كان أوجب واجب اجتماعى فى نظر سعد مواساة أصدقائه فى أحزانهم . ففى عام ١٩٢٤ إذ كان دولته رئيساً للحكومة فجعنا بوفاة حمى" المرحوم يوسف سابا باشا ، ولعلمى بالصداقة المتينة التى كانت تربطه بسعد قصدت إلى منزله لأبلغه الخبر فلقيت مصادفة المغفور له محمد توفيق نسيم باشا وكان يترجل من سيارته . فسألته أن ينوب عنى فيما أنا حاضر من أجله ، فاغرورقت عيناه بالدموع وأمسك بيدى وأدخلنى إلى مكتب سعد باشا حيث كان الوزراء جميعهم مجتمعين به . فلما علم سعد بالنبأ ظهرت على وجهه علامات التأثر البالغ وطفق يؤبن صديقه بعبارات أسالت عبراتى ، ومما قاله إنه من أشق الأشياء على نفسه أن يرى الموت يختطف أحباءه ويبقيه ليذوق لوعة فراقهم . ثم التفت إلى نسيم باشا — وكان وزيراً للداخلية — وقال له : (أرغب فى أن تعملوا لهذا الرجل العظيم أعظم ما يمكن من التكريم) . أراد أحد الوزراء أن يقرظ أيضاً الفقيد فقال : « إنه كان رجلا نزيهاً » فرد عليه سعد بلهجة الغضب :

« هذه صفة سلبية لا يمدح بها مثل سابا باشا »

وعند تشييع الجنازة وجدت سعداً فى المقدمة ، وكان متعباً جداً لا يمشى إلا بمشقة والسعال يقطع عليه التنفس ، فألححت غير مرة فى أن يكف عن السير ، ثم جذبته من ذراعه وخرجت به إلى الإفريز المحاذى لنادى (ريزوتو) بشارع سليمان باشا (شركة ايرفرنس الآن) وطلبت كرسياً أجلسته عليه ليستريح مما تحمله من النصب .

١٢ — مذكرة الوفد لمؤتمر الصلح ومذكرة اقتصادية

كلف صدقى باشا كتابة التقرير السياسى الذى قرر الوفد وضعه باللغة الفرنسية

عن القضية المصرية وتقديمه لمؤتمر الصلح ، فلما أتمه وعرضه على الهيئة ، رأت أنه فى حاجة الى تعديل ، واقترح بعضهم أن يعهد إلىّ فى ذلك ، فلما أبلغت هذه الرغبة اعتذرت خشية أن يتأثر صدقى باشا ، ولكنه حضر إلىّ بنفسه وقال : أرجو بالحاح أن تعدل تقريرى كما تشاء ، فأكون مديناً لك بالشكر . فقبلت وعكفت مع (جورج دومانى) عدة أيام فى منزلى على وضع التقرير الذى كتبناه أنا ودومانى وقد طبعه الوفد وقدمه سعد باشا إلى « جورج كليمانصو » رئيس مؤتمر الصلح بخطاب مؤرخ فى العشرين من يناير سنة ١٩٢٠ .

وتلقيت أيضاً من الوفد المذكرة التالية التى أنقلها بحروفها :

الوفد المصرى

يوسف نحاس

١ — المساعدات التى بذلتها مصر فى الحرب لمساعدة الحلفاء من رجال وأموال وخسائر .

٢ — القطن وتحديد أثمانه وانتقاد ذلك ، وانتقاد السياسة الزراعية فى البلاد .

ملحوظة :

يشترك مع حضرتكم فى البند الأول سعادة يوسف قطاوى باشا .

* * *

تنفيذاً لهذا القرار وضعت تقريراً ضافيا طبعه الوفد أيضاً باللغة الفرنسية والعربية وأذاعه فى مختلف الجهات و يجده القارئ منشورا فى مجموعة أعمال « النقابة الزراعية المصرية العامة » التى طبعتها حديثاً بعنوان « جهود النقابة الزراعية المصرية العامة فى ثلاثين عاما » .

١٣ – بوادر الخلاف فى الوفد

على أثر الغضبة القومية المروّعة وما أدت إليه من ثورة عنيفة بسبب اعتقال سعد وصحبه الثلاثة فى مالطه ، أطلق سراحهم وأجيز لهم السفر إلى باريس . فقام من القاهرة يوم ١١ أبريل سنة ١٩١٩ لمقابلتهم فى مالطة باقى إخواننا من أعضاء الوفد وغيرهم كما سأفصله فى موضع آخر ، وانضم إليهم صديقى القديم المرحوم الأستاذ عزيز منسى المحامى ، ولم أتمكن من مصاحبتهم لأننى في نفس اليوم الذى أذيع فيه خبر الإفراج عن معتقلى مالطة كنت فى مزارعى بفاقوس راكبا جواداً فجمح بى وطرحنى أرضاً فأصبت بكسر فى عظام يدى اليمنى . على أننى سافرت بعد إخوانى فى شهر مايو سنة ١٩١٩ ومعى المحاضر والتقارير عن الفظائع التى ارتكبها الإنجليز فى الجيزة وغيرها ، وأوراق أخرى كلفت حملها إلى الوفد . و بعد وصولى إلى باريس بساعة واحدة حضر سعد باشا إلى المنزل الذى سكناه للتسليم علينا ودعانى وزوجتى لتناول العشاء عنده فى يوم اتفقنا عليه .

ما كدت أصل باريس حتى وجدت الجو ملبداً بالغيوم ، ودبيب الشقاق قد دب بين إخواننا الذين تغربوا للدفاع عن قضية الوطن الكبرى . فحزنت أعمق الحزن لعدم استطاعتنا التحرر حتى فى مثل هذه المواقف الخطيرة من أكبر عيب فينا وهو أن يجر اختلافنا فى الرأى إلى خصام شخصى بل إلى عداء . فكنت أسمع من هذا الفريق طعونا جارحة فى أشخاص الفريق الآخر ، بل تهما فظيعة غير مرتكزة على أساس كقولهم : إن فلانا متصل بالسفارة البريطانية يبلغها كل مايجرى فى الوفد ، وغير ذلك كثير .

عقب وصولى إلى باريس دعانى بعض الأصدقاء لتناول الغداء و بثوا إلى شكاواهم الكثيرة من سعد باشا ومعاملته لهم معاملة غير مقبولة . فوعدتهم أن أتكلم مع الباشا فى ذلك وأن أجتهد فى إزالة ما بينهم من سوء تفاهم ،و بالفعل اغتنمت فرصة

وجودى فى منزل سعد باشا للعشاء فى اليوم التالى ، تلبية لدعوته ، ولما انتقلنا إلى غرفة الجلوس لشرب القهوة قلت للرئيس : ما قولك فى رجل أكل أشهى الطعام الذى قدمته له ولا يستحى من أن يشكرك عليه بأن يوجه إليك نقداً وعتباً ؟ فقال : ولم هذا ؟ أجبت : لأننى سمعت شكوى من بعض أصدقائنا دلتنى على أن هناك عدم انسجام بل سوء تفاهم إن لم تتداركوه بحكمتكم منذ الآن سيفضى إلى انشقاق فيشمت فينا العدو ويحزن الصديق . وإنى وإن كنت أعتقد أن معاليك لست المتجنى على أولئك الشاكين إلا أننى أقول لك بصراحتى التى تعرفها : إن أكثر اللوم سيقع عليك لأنك الرئيس والزعيم ، ويجب أن يتسع صدرك لهنات من معك (وعلى البحر أن يسع الترع) كما يقولون . وبعد مناقشة قصيرة ودية قال لى : حسن يافلان سأعمل برأيك . وفى صباح اليوم التالى لما اجتمع الوفد قام سعد باشا وقال : يا إخوانى إذا كنت قد أسأت إلى بعضكم من غير قصد فإنى أعتذر إليكم وأمد لكم يدى لنتصافى ونتصافح . فسر إخواننا سروراً عظيما بهذا الكلام وعرفوا أنه نتيجة لمسعاى لدى الباشا فشكرونى .

إلا أن الخلاف ما لبث أن تجدد فعملت ما فى طاقتى لإعادة الصفاء وحسن التفاهم . ولا أدعى أننى نجحت كما كنت أود إلا أننى وفقت قبيل مغادرتى باريس بعض التوفيق إذ استطعت أن أزيل الجفاء الذى نشب بين سعد باشا وعلى شعراوى باشا . فدعوت جميع أعضاء الوفد إلى مأدبة غداء فى مطعم « مارجيرى » الشهير وبعد مجهود كبير قبل سعد وشعراوى دعوتى وكان محل « مارجيرى » قد خصص لنا دوراً كاملا فساعد ذلك على رفع الكلفة وإيجاد جو مرح وصفاء . وبعد أن شربنا القهوة قام عتاب طويل بين الصديقين اشتد فيه الجدل وارتفعت الأصوات وانتهى الأمر بالتفاهم وعودة المياه إلى مجاريها فشكرت لله سبحانه وتعالى هذه النتيجة الموفقة ولكنها للأسف لم تدم طويلا .

١٤ـ حادث مؤسف آخر من حوادث الشقاق

فى أواخر شهر يوليو سنة ١٩١٩ أقيمت حفلة شاى سـياسية فى فندق « كلاريدج » بباريس تكريما للوفد حضرها جم غفير من رجال السياسة والصحافة والأدب الفرنسيين وألقيت فيها خطب حماسية كان أوقعها فى نفس الحاضرين خطبة سعد باشا التى ألقاها بالفرنسية بصوت مؤثر وعبارات جميلة دوت لها قاعة الاحتفال دوياً هائلا . فلما عدت إلى منزلى وجدت تلغرافا من المرحوم محمود بك أبو النصر يطلب منى فيه ملحاً أن أقابله حالا فى فندق « الـكنتننتال » بباريس لأمر خطير . وكان سيبرح باريس إلى مرسيليا فى عشية ذلك اليوم . فلما التقينا أخبرنى أن الوفد قرر فصله هو وإسماعيل صدقى باشا من غير محاكمة ومن غير سماع أقوالهما ، وأنه لم يعلم بهـذا القرار إلا اليوم وهو يطلب وساطتى لدى سعد باشا . وإذا كان الوفد لا يريد أن يعمل معه فهو مستعد لتقديم استقالته فوراً . وألح علىّ كثيراً مبدياً تخوفه من عاقبة قرار الوفد وماسيجلبه عليه من إساءة وامتهان حين يصل إلى مصر . فوعدته بأننى سأبذل أقصى مجهود مستطاع وأبرق له بالنتيجة فى مرسيليا .

عدت إلى منزلى حيث كنت أقيم مع صديقى عبد العزيز فهمى وقصصت عليه ماجرى بينى وبين محمود أبو النصر بك وسألته عن أسباب فصله من الوفد ؟ وكيف أنه لم يخبرنى هو بهذا القرار ؟ فقال لى عبد العزيز : إن هذا القرار قد أثار احتجاجى بل أمرضنى كما ترى ، وليس فى نظرى من الأسباب مايبرره وعلى كل حال فاذهب إلى سعد باشا وتـكلم معه لعلك تستطيع إقناعه وتفوز منه بنتيجة حسنة عجزت أنا عن بلوغها فاعتكفت . وعقب تناولنا العشاء قصدت تواً إلى منزل الباشا ، وبعد أن هنأته بخطبته الجميلة المؤثرة كلمته فى الشأن الذى كنت حاضراً إليه من أجله فقلت : حقيقة لا أفهم كيف ، أنه وهو القاضى الذى اشتهر بالعدل والذى كان لا يرضى أن

يحكم على شخص فى مخالفة بسيطة قبل سماع دفاعه ، يسمح بالحكم على رجلين من زملائه بالموت الأدبى من غير أن توجه إليهما تهمة معينة ولا تعطى لهما فرصة لدفعها عنهما . فأجابنى الباشا : إن قانون الوفد يجيز فصل أى عضو ترى الهيئة أنه لم يعد يمكنها العمل معه من غير إبداء الأسباب أو توجيه تهم معينة . قلت : ولكن هذا كثير ، وأنا واثق أن ضميرك الحىّ لا يرتاح إليه كل الارتياح ، فإذا كان أصبح من العسير العمل مع هذين الرجلين فلماذا لا يكلفان بالاستقالة ؟ إن محمود بك أبو النصر مستعد لتقديمها فوراً . قال الباشا : قد تكلمنا فى ذلك ولكن قيل أنهما قد يعودان إلى مصر و يتقوّلان على الوفد بما يسىء سمعته ، فكان ردى : أن الوفد أكرم على الأمة من أن تنال منه مثل تلك التقولات . و بعد أخذ ورد قبل سعد أن يستبدل بقرار الوفد تقديم استقالة العضوين ، وما كاد الباشا يقول ذلك حتى دخل علينا اثنان من أعضاء الوفد وهما المغفور له محمد محمود باشا وصديقى أحمد لطفى السيد باشا فأخبرهما سعد بما انتهت اليه مناقشتنا الطويلة ، فعارضا معارضة قوية محتدين ، فقلت لسعد باشا : لقد عملت الواجب يا باشا وأنا لا أريد أن يكون مسعاىَ سبباً لإحداث شقاق بينك و بين صديقينا الكريمين ، فليتحمل كل مسؤولياته أمام ضميره وأمام التاريخ . وانصرفت مكتئباً .

ولما وصل محمود بك أبو النصر الى مرسيليا أرسل إلى الكتاب التالى :

مرسيليا فى ٣ أغسطس سنة ١٩١٩

أخى يوسف بك

أنا فى انتظار كلمة منك أقف بها على خبيئة الأمر فيما يحاولون من المكايد إرضاء لأهوائهم ، وفى اعتقادى أنهم إذا لم يعودوا إلى صوابهم كانوا البادئين بالشر وكان لى هنالك ألف عذر ؛ وهنالك يرون ذلك الكيد مردوداً إلى نحورهم « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى يحزننى كل الحزن أن يكون مبلغ ما يدفع به

عنى صديقى عبد العزيز تلك الظلامة وأنا غائب أن يعلمهم أنه ليس من رأيهم لأنى أعرف أن لديه من الوسائل ما يلزمهم طريق الرشاد ولا أزيد على هذا ، وإنى أنتظر هنا إذن السفر راجياً ألا يجىء .

والسلام والتحية والإكرام والاحترام من المحب الصادق

محمود أبوالنصر

حاشـــية :

أطيب تشكراتى سلفاً . سيدى أضحكنى جداً ما بلغنى هنا من أن سـعداً وشيعته تنقم منى أنى كنت أكاتب صدقى باشا وهو فى « فيشى » بما يجرى فى الوفد وأن هذا يعتبر إفشاء للسر لأن الرقيب الفرنساوى يقرأ الجوابات ؟ انتهى .

* * *

وإذ بلغ الإسكندرية كتب إلىّ منها بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٩١٩ الـكتاب المطول الآتى أثبته كما هو للحقيقة والتاريخ :

أخى يوسف بك .

ترددت زمنا فى الـكتابة إليك ثم رأيت أن أفعل ولو ثقلت عليك . لا أريد أن أصدعك بذكر ما جرى وما سيجرى ، ولـكننى فقط أسألك باسم الفضيلة وبحرمة الإخاء الذى لا أساس له بيننا غير الصدق والإخلاص ، أسألك إذا هان علىّ أنا وصدقى باشا أن نرى عوامل الأضغان تستحكم فى ذلك الصدر الضيق صدر صاحب المعالى رئيس الوفد ، وفى تلك النفس الضئيلة نفس صاحب السعادة المدير ، وفى ذلك الهيكل هيكل الشؤم والنحس سى لطفى بك خليفه أرسطو المحترم ، أن نرى عوامل الشر تستحكم فيهم فتدفعهم إلى تدبير ذلك الـكيد لنا واستهواء الباقين من ذوى الأنفس الضعيفة والذمم الطاهرة إلى موافقتهم على إستباحة شرفنا وكرامتنا فى غيبتنا بما لا أظن أن تصبو إليه نفس أخرى مهما انحطت ... إذا هان علينا أن نري ذلك من مثل

سعد باشا وأنت تعلم ما فى نفسه من جهتنا ، فهل يهون أن نرى ذلك الصديق الحميم والرجل العظيم « عبد العزيز بك فهمى » يسجل على أخويه ما سجله أولئك ويرمينا معهم ظلما وعدوانا بأننا حدنا فجأة عن الطريق المرسوم إلى تحقيق آمال الأمة وقمنا نعمل على غير ما يقضى به التوكيل .

فلهذه الأسباب ولعدم الثقة بهذين العضوين قررنا بإجماع الآراء فصلهما من الوفد لانشقاقهما عليه .

حصل ذلك بجلسة ٢٤ يوليه ونحن معك « بفيشى » وفى الحال أرسل جواب من معالى الرئيس إلى لجنة الوفد بمصر مرفقا بمحضر الجلسة وطلب من اللجنة أن تعلنه فى مصر ثم أوفدوا « بدر بك » مزوداً بتعاليم شتى أهمها أن الوفد تزداد آماله وأعماله قوة يوما عن يوم ، وأن الرجاء قوى جداً جداً ، وأن أعضاءه لا يعودون إلا إذا نالت مصر استقلالها التام ، وان هذا الاستقلال التام ستصل أخباره قريبا جداً سيما وأن الوفد وكل محامياً لعدم الموافقة على الحماية فى أمريكا ، وهذا المحامى متبرع بعمله (جواب سعد باشا) مع أنه يأخذ أتعابا فى الجنحة عادة خمسين ألف جنيه (٥٠٠٠٠ جنيه) هذا هو ما نشرته الصحف التى خصص لها هنا مبلغ ١٥٠٠ جنيه للدفاع عن الوفد وترويج أخباره .

وصلت أنا وصدقى باشا إلى مصر ولا علم لنا بشىء من ذلك قط وقد اتفقنا على ألا نعمل عملاما إلا بعد تعرف الحقيقة والوقوف على مبلغ كيد صاحب المعالى وعصبته ، ولذلك أمسكنا عن إعطاء الجرائد أى خبر كان وحادثناها بما لا يمس كرامة الوفد ، ثم لما رأينا التغرير بالأمة والتشهير بنا سيأخذ شكلا جديا ، هممنا نعمل فأدركنا رجال عقلاء من اللجنة ومن غير اللجنة وطلبوا إلينا بحرمة الوطن وبحق الإنسانية أن نوسع صدورنا وأن ننتظر ريثما يراجعون الوفد فى خطته تلغرافيا . كان هذا يوم تاريخه فلم يسعنا إلا قبول ذلك الرجاء ، وهانحن منتظرون حتى نرى نتيجة مساعى اللجنة هنا فى تلافى

هذا الخطر ، والعقلاء فى دهشة كبرى من سقوط معالى الرئيس ومن معه فى هذه الوهدة ولكننا مع كل هذا فى حيرة من أمرنا لأننا مع مزيد الأسف لانستطيع إلا كشف الستار عن كل ما هنالك ، وتبيان أن هذا التغرير بالأمة جناية كبرى ومضيعة لكل ما كانت ترجوه من الفوائد ، وللضرورة أحكام . ولا أظن أن علينا لوما إذا لم يعد أولئك الجماعة إلى صوابهم . ما كنت أريد أن أسترسل فى الكتابة إليك خصوصاً وانى أعتقد أن سعد باشا يباهى جلساءه بأن مكيدته قد نجحت وأنه قد نال منا مأربه بعد أن وقعنا فى جريمة (ليز ماجستى) فسيكبر عليه أن يرجع عن خطته اغتراراً بما يكتبه إليه بعض أعوانه المخدوعين بمصر ، فليكن ذلك . ولكن الذى لا يهون هو أن نرى حضرة عبد العزيز بك يقضى على رجلين مثلى ومثل صدقى باشا ذلك القضاء ظلما وعدوانا ولا أزيد على ذلك الآن ، والسلام ختام .

محمود أبو النصر

ملحوظة :

كتب بهامش الخطاب ما يأتي :

(ها أنا صابر على الأذى حتى أراك قريبا)

ويرى من هذا الكتاب أنه كتب تحت تأثر المرحوم محمود بك الشديد مما سمعه وعلمه عندما عاد إلى مصر . وهذا التأثر قد أملى عليه عبارات قاسية ضد بعض زملائه السابقين ، وأحكاما غير عادلة على سعد . وعبدالعزيز . ولطفى . ومحمد محمود . وللأسف العظيم لم أستطع وأنا فى باريس سنه ١٩١٩ أن أحول الوفد عن قراره .

ثم عدت إلى باريس سنة ١٩٢٠ وكان المرحوم محمود بك أبو النصر لا يزال يجاهد بكل قواه للوصول إلى تعديل حكم الوفد ضده . وكان الوفد قد عدله بالنسبة

إلى إسماعيل صدقى باشا . فأرسل إلى محمود بك وأنا فى باريس التلغراف الآتى تعريبه مؤرخاً ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٠ .

الاسكندرية فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٠ .

نحاس بك :

أكل إليك وإلى لطفى بك تسوية مسألتى الشخصية بأن توضحا ما فى التهمة الموجهة إلىّ من ظلم بين إذ أن وطنيتى تحول دون الدفاع عن نفسى بالوسائل العلنية .

أبو النصر

وكان قد سبق تلغرافه هذا كتاب منه مؤرخ فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٠ هذا نصه :

عزيزى يوسف بك

أرى كل عذر دون تقصيرى فى مكاتبتك فلا ضرورة لانتحال أعذار .

يشهد الله أنى هممت بالكتابة إليك غير مرة من يوم ألقى إلىّ كتابكم الكريم ، وكنت كلما تناولت القلم جف مداده تارة واستعصى علىّ من كثرة ما ينتابنى من الخواطر المضطربة وما قاسيت من المتاعب والآلام طول هذا العـــام بفضل ما كاده لى بعض الإخوان الكرام من رجال الوفد ، وتارة يفيض على الطرس بدمعه المدرار فيوشيه ولكن بأحرف من نار .

أذكر أنى أخذت أناجيك فى إحدى هذه الرسائل ، فكتبت وكأنما كنت أناجى نفسى . فلم أنته من الجواب إلا بعد أن بلغت صفحاته عشراً أودعتها كثيرا مما يتردد بين جوانحى ، وما هو إلا أن أعدت نظرى إليها حتى مزقتها لأنى رأيت أولا ألا أظهر بالشكاية الآن لغير الله ، ورأيت ثانيا ألا أثقل عليك فى ساعات راحتك وأوقات سرورك .

كان هذا عدة مرات كنت أمزق فيهـــا رسالتى عقب الفراغ منها وأقعد

ساكتا أنتظر وقتاً أنسب فلا أجده لكثره مايعتريني من الانفعالات كلما تذكرت أمر ذلك الكيد العظيم وتلك التهم الشنعاء التى وجهت إلىَّ فى وطنيتى وفى أخص شىء من مزايا الوجود لدىّ جزاءً وفاقاً لوشاية كاذبة ضاق عنها صدر معالى الرئيس سامحه الله .

هذا ياسيدى هو كما ترى ما نالنى من صحبة سعد باشا وصداقة عبدالعزيز بك لقد حاول سعد باشا قتلى غدراً بما دبره فى غفلتى لغير ذنب جنيته سوى الوشاية ولكن والحمد لله لم أمت، وأرجو ألا أموت قبل أن أناقشه الحساب مهما كبر وتعالى . ومن المحزن أن يسترسل معاليه فى الكيد لأخيه ولم يكفه مالقيت ،وكنت أظن أن ثورة غضبه قد هدأت وأنه عاد فرأى أنه غدر بى غدراً كبيراً . نعم كنت أظن أنه بعد أن نال منى ما نال لاتفوته فضيلة الرجوع إلى الحق بالنسبة إلىَّ كما فعل مع غيرى ، ولكن الظاهر أنه يريد أن يؤبِّد حكمه علىّ وحدى ، وأن يؤبد مارميت به فى وطنيتى وشرفى من فظائع التهم التى أذاعها بعض أعوانه فى مصر. فهل يعلم الأستاذ ماجرى ؟ جرى أنه عقب ورود كتابك الكريم إلىّ ورد من معاليه جواب إلى زميلى المحكوم عليه معى حكماً واحداً بالطرد من دائرة الوطنية أعلنه فيه أن سوء التفاهم بينهما قد زال ،وأنه قد عاد إلى حظيرة رضاه ، ويرجوه أن يمد اللجنة المركزية بسديد رأيه وقد كتب إلى اللجنة بهذا المعنى .

أذاع زميلى المذكور هو ومن حوله هذا الخبر فى طول البلاد وعرضها فدفع عن نفسه بذلك كثيرا من التهم والشبهات ، أما أنا فبقيت وحدى ذلك الرجل الخائن فاللهم صبرا . بجانب سعد باشا صديق لصدقى باشا عمل لإنصافه وتخفيف آلامه إن كان لديه آلام .

أما أنا فلى الله ولى الصديق القديم صديقك الحميم الأستاذ عبدالعزيز بك ولعلك تعرف ما كان منه قبل و بعد استباحة دمى بما كان من معالى الرئيس . فاذا لم يكن لى صديق كالذى عمل لصدقى باشا فلى الله ، ولى الماضى ، ولى المستقبل إن شاء الله ...

إن كان لهم صالح فى التمادى معى على الإساءة والأذى جزاء اتصالى بهم واستسلامى إليهم فانى راض وصابر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

عز يزى :

مثلك تـكفيه الإشارة ولذلك لا أريد أن أطيل عليك الحديث أكثر من هذا ولا أن أكلفك احتمال المشاق فى بذل النصح إلى سعد باشا أن يعيد النظر فى أمره معى فإن هنالك ولا شك ما هو أهم من ذلك .

حالت ظروف وطوارئ دون سفرى هذا العام فألقيت رحلى بثغر الإسكندرية واتخذتها لى مصيفا ، ومن حظى أنى كثيراً ما أرى الأستاذ « منسى » كما أنى أرى الوالدة حفظها الله « بالـكازينو » أحيانا . الناس هنا فى حيرة من غموض مايرد من الرسائل البرقية ولـكنهم ينتظرون القادمين من أعضاء الوفد ليزفوا إليهم البشرى بالاستقلال التام . حقق الله الآمال . أرجو أن تـكون أنت وعائلتك ممتعاً بالصحة والعافية وأن تـكون هذه السياحة قد ألبستكم ثوباً من الصحة لا يبلى .

سلامى واحترامى إليك و إلى عائلتك الـكريمة . أرانا الله وجهكم فى خير . آمين

إمضاء

محمود أبو النصر

ملحق بذيل الخطاب السابق بخط محمود بك أبو النصر :

« أمليت هذا على كاتبى الخاص وأنا فى سريرى لانحراف ألم بى عقب عودتى إلى مصر فلا تؤاخذنى ودم للمخلص »

محمود أبو النصر

انتهى الخطاب و إن عبارته الثائرة المضطرمة تشهد بوطنية المغفور له محمود أبو النصر ، وتنم عن بالغ ألمه إذ رأى جهاده الطويل فى سبيل القضية المصرية قد انتهى إلى هذه النتيجة المحزنة التى لا أتردد فى القول أنها ظالمة .

أثبتنا كل ما تقدم وفى النفس ألم ممض ، إذ يرى أن ثورة الأنفس قد بجمح بالقلم واللسان إلى مثل ما انزلقت إليه عبارات تلك الرسالة الشديدة التى أعتقد أنها قد جاوزت ما تقضى به الخلافات فى المسائل العامة حتى فى قرارة نفس كاتبها ، وهذا الاندفاع لا تنفرد به مصر دون غيرها ، فإنما نراه بل نرى أكثر منه عندما تشجر خلافات سياسية فى مختلف البلاد العريقة فى الديمقراطية . على أنه إذا كانت الظروف لم تسمح بأن يعود صديقى محمود أبو النصر إلى حظيرة الوفد فقد تبوأ مكانه فيه نجله الذى أتمنى له التوفيق فى خدمة البلاد .

بقيت مسألة محمود بك حيث كانت . وبعد مضى بضعة أشهر أخرى اتسع الخلاف بين أعضاء الوفد فخرج منه بعض الأشخاص البارزين ومنهم عبدالعزيز فهمى وذلك على أثر تلغراف (نبتت) المشهور .

أما إسماعيل صدقى باشا فإنه لم يكفنى بأى مسعى إذ كان قد غادر فرنسا قبل محمود بك أبو النصر سنة ١٩١٩ فلم يعلم بقرار فصله من الوفد إلا وهو فى مصر ، فلما عدت إليها من فرنسا أرسل إلىّ كتاباً بالفرنسية هذه ترجمته الحرفية .

الرمل فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩١٩ .

إلى حضرة يوسف نحاس بك بميدان الإسماعيلية بمصر .

صديقى العزيز .. اسمح لى بأن أهنئك بسلامة العودة وأن أسألك عن صحة مدام نحاس بك ، وإنى آسف لأن إقامتى فى رمل الإسكندرية التى ستستمر زمنا آخر مانعتى من أن أراك لنستأنف اتصالا كنت أقدر قيمته تقديراً متزايداً . على أننى أرجو ألا يطول غيابى عن العاصمة فهل لى أن أعتمد على الاحتفاظ بمنزلتى عندكم حتى بعد قرار «الحرم» الذى وقع علىّ ؟ هذا ما أطمح إليه من جهتى إذ أنكم وقد رأيتمونى أعمل أنعشم ألا أكون قد ظهرت لكم بمظهر الخائن لقضية بلاده واقبلوا .. إلخ .

الإمضاء : صدقى

ويظهر أن وساطات استخدمت لإبطال قرار « الحرم » الذى يذكره صدقى باشا وأنها قد نجحت . فقد جاء فى كتاب المرحوم محمود بك أبو النصر المرسل إلىّ فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٠ المذكور آنفاً العبارة الآتية : ورد من معاليه — أى سعد باشا — جواب إلى زميلى المحكوم عليه معى حكما واحداً بالطرد من دائرة الوطنية أعلمنه فيه أن سوء التفاهم بينهما قد زال وانه قد عاد إلى حظيرة رضاه ويرجوه أن يمد اللجنة بسديد رأيه وأنه قد كتب إلى اللجنة بهذا المعنى . وقد أذاع زميلى المذكور هو ومن حوله هذا الخبر فى طول البلاد وعرضها ، فدفع عن نفسه بذلك كثيراً من التهم والشبهات — أما أنا فبقيت وحدى ذلك الرجل الخائن ... فاللهم صبراً » .

على أن العلاقات لم تتحسن البتة بين الوفد وصدقى باشا . وقد أتيحت له بتوليته رياسة الوزارة فرصة ثأر لنفسه فيها من الوفديين بشدة مستخدماً أقوى وسائل القمع وأعنفها حتى ضد من كانت تربطه بهم أواصر الصداقة الشخصية مثل المرحوم سينوت بك حنا .

١٥ — انصياع سعد للحجة ورجوعه إلى الحق

المشهور عن سعد باشا تشدده فى الدفاع عن رأيه فلا يرجع عنه بسهولة ، وأنه كان يحتد أحيانا على معارضيه حتى يظن الجالسون فى الغرفة المجاورة أنها « خناقة » لا مناقشة .

لا أمارى أنه كان يتحمس بقوة لوجهة نظره ولكنى أعلم أكيداً أنه ما كان من المتعذر حمله على العدول عن رأيه إذا استخدم محدثه أسلوبا حسناً وهوادة . والشواهد التالية تعزز ما أقول :

١ — أخبرت وأنا فى « فيشى » فى شهر أغسطس من عام ١٩٢٠ أن سعد باشا سيحضر إليها من لندن للاستشفاء بمائها من مرض السكر ، وكلفت حجز

غرف له فى فندق (ماجستيك) . قابلته بالمحطة ليلا وصحبته إلى الفندق حيث كنت قد حجزت له وللسيدة الجليلة أم المصريين التى كان حضورها منتظراً من باريس فى اليوم التالى ، حجرة للنوم وغرفتين للاستقبال ، واتفقت على الأجر مع مدير الفندق على أن يدفع سعد باشا أجر مسكنه الخاص وأن يدفع الوفد أجر غرفتى الاستقبال . فلم يقر سعد باشا هذا الترتيب ،وألح فى أن أعود إلى المدير ليكون أجر أحد الصالونين على حسابه الخاص .

فى صباح اليوم التالى يممت الفندق فوجدت سعد باشا جالسا مع المرحوم أحمد يحيى باشا وطال الحديث بينهما فضاق سعد باشا به ذرعا ، إذ كان المرحوم يحيى باشا يريد الوقوف على تفاصيل قرر الوفد أن تبقى سرية ، ثم انصرف الزائر فقال لى الباشا : هيا بنا نروح النفس مشياً على الأقدام فى متنزه « فيشى » فخرجنا واستطرد بنا الحديث إلى مسألة كانت تشغل الوفد آنئذ فسألنى معاليه رأيى فأدليت بما عندى فلم يرقه وكان لا يزال تحت تأثير المناقشة التى طالت بينه و بين المرحوم أحمد يحيى باشا . فاحتد ورفع ذراعيه وصاح بصوت عال (يابك . يا ...) فقطعت عليه الكلام قائلا : أننى نزلت عن رأيى إذ لا أريد أن أتعبك وأهيج أعصابك . فسكت هنيهة ثم قال : « يايوسف هذا هو عيبى ، فلا تؤاخذنى وأعد علىّ تفصيل رأيك » فاستمع لبيانى بكل أناة ثم قال : إنى أوافقك على رأيك وقد تبينت صوابه .

بعد ذلك أخذ يتحدث إلىّ عن حضرات أعضاء الوفد واحداً واحداً واصفاً كلا منهم وصفاً دقيقاً ذاكراً ماله وما عليه حتى وصل فى كلامه إلى عبد العزيز فهمى فقاه بالكلمات الآتية التى استحضرها كأنى سمعتها الآن (أما عبد العزيز فإذا حال حائل بينى و بين الوفد فلا آمن عليه سواه) وقد ذكرته بهذا الكلام فى مناسبة سيأتى شرحها .

٢ — ذهبت ذات يوم إلى مقر الوفد فى باريس كعادتى فى كل صباح فقابلنى عند الباب أحد أعضاء الوفد ودفع إلىّ بورقة كانت بيده قائلا (هذا مشروع كتاب

نريد أن نرفعه الى المسيو (كليمانصو) ولكننا لا نستحسن لهجته فنرجو أن تعيد نظرك فيه وتنقحه كما ترى) ظننت أن هذه هى رغبة سعد باشا فأخذت فى مراجعة الكتاب ، وقبيل أن أتمها جاءنى رسول من عند سعد طالباً أن أسلمه النص الأصلى مضيفاً أن الباشا غضب لما علم أنى أنقحه قائلا : أنا وافقت على ما كتب فهل يوسف نحاس يعرف الفرنسية أحسن من معرفتى لها ؟ سلمت الرسول الكتاب وانصرفت . وكنت وعبدالعزيز على موعد مع سعد بعدظهر ذلك اليوم لنذهب إلى « السربون » حيث دعانا الشيخ « يوسف الخازن » إلى سماع محاضرة سيلقيها فى هذا المعهد بالإفرنسية .

حضر سعد إلى المنزل الذى كنت أقطنه مع عبد العزيز ، فلما خرجنا وكان الجو جميلا اقترح علينا الباشا أن نستمتع بالهواء والشمس بدل أن نحبس أنفسنا فى قاعة مغلقة لسماع محاضرة « الخازن » . فوافقناه وأخذنا نسير على الأقدام فى شارع (شانزليزيه) . وضع سعد ذراعه تحت إبطى وقال لى : أرجو ألا تكون قد تأثرت من استرداد الكتاب الذى طلبوا إليك تنقيحه فى هذا الصباح ومن قولى إنك لا تعرف الفرنسية أكثر من معرفتى لها . وهذا طبعا غير صحيح ، ولكنهم استفزونى بطلبهم تغيير نص كنت قد أقررته ولو أنك جئتنى أنت وقلت لى إن النص فى حاجة إلى التغيير لرغبت إليك فى تعديله . أجبت : ليست معرفة أحدنا للغة أجنبية أكثر من معرفة الآخر لها مما يدعو إلى المفاخرة والمباهاة ، فإن أصغر مدرس فرنسى قد يتقن لغته أكثر مما نتقنها نحن . وإنما العبرة بالثقافة العامة . ولا شك ياباشا فى أنك تفضلنى وتفضل كثيرين جداً من هذه الناحية ، فما كان لى إذن أن أتأثر من ذلك الذى قلته ، وإنما كان تأثرى من أن ترسل إلى المسيو « كليمانصو » كتاباً موقعاً عليه منك فيه مآخذ من حيث العبارة ومن حيث البراهين التى استعملت فى غير موضعها ، فإن لكل مقام مقالاً . فغمرنى الباشا بكلمات الأسف لما وقع .

٣ — على أثر احتدام الحركة القومية واتساع نطاق المظاهرات فى مصر عين

الجنرال « بلفن » خلفا للجنرال « مكسويل » فدعا جميع أعضاء الوفد لمقابلتـه فى فندق « سفواى » الذى كان مقراً للقيادة العليا البريطانية ، فلما ذهبوا إليه أدخلوا غرفة خالية من المقاعد ليس فيها سوى منضدة طويلة فاضطروا أن ينتظروا وقوفا إلى أن فُتح باب من خلف المنضـدة دخل منه الجنرال « بلفن » مع أركان حربه وتلا عليهم إنذاره المشهور الذى حملهم فيه مسؤوليـة الشغب القائم فى البلاد ثم أضاف (غير مسموح بالمناقشة) وانصرف .

فى مساء ذلك اليوم قصدت بيت الأمة فوجدت جميع إخواننا من أعضاء الوفد مجتمعين بالغرفة الصغيرة التى بها مكتبة سعد باشا وهم فى اضطراب وكآبة . قصوا على ما جرى لهم . فثارت ثائرة نفسى وسألتهم : ماذا عملتم تلقاء هذه المقابلة غير المؤدبة ؟ ألم تحتجوا عليها ؟ قالوا : كنا نريد أن نكتب كتاب احتجاج ولكن الباشا أبى وعارض أشد المعارضة فى ذلك وها هو فى مكتبه فأدخل عليه وتكلم معه فى هذا الشأن .

وجدت الباشا يكتب فلما رآنى سألنى إن كنت علمت بما حصل ؟ فقلت : نعم . وأبلغت أيضاً أنكم لم توافقوا على إرسال كتاب احتجاج على هذه المعاملة التى لا تطاق والمخاطبون رجال من علية القوم منهم وزراء أقدمون وممثلون للأمة فى الجمعية التشريعية إلخ . فإن فرضنا أنه لا يجوز الاحتجاج على إنذار عسكرى فى موضوعه ، فالاحتجاج ضرورى على الكيفية الشاذة فى تبليغه ، والذى أتوقعه مع الأسف أن لهذا الإنذار ما بعده ، وأخشى أن يكون الإجراء الذى سيتخذونه قاسيا . فلا أقل من أن ندافع عن كرامتنا ، ومازلت به حتى أقتنع وقال لى : قم واكتب خطاب الاحتجاج مع «دومانى» واقرأه علىّ وعلى حضرات الأعضاء الموجودين. فكتبت بالفرنسية ذلك الكتاب المحفوظ ضمن أوراق الوفد وفيه احتجاج بشدة على ما عومل به رجال الوفد. فأقره سعد باشا ووقع عليه وأرسل مع مخصوص إلى مقر القيادة بفندق «سفواى» ليلا . وقد كان ما توقعناه فقد قبض فى اليوم التالى على سعد وثلاثة من صحبه ونفوا إلى مالطة .

١٦ — سعد وعبد العزيز

لا يقدر مبلغ حزنى لاختلاف هذين الصديقين القديمين إلا من عرف مالهما فى قلبى من مكانة . أما عبد العزيز فإنه الأخ الوفى الذى أظهر لى من الإخلاص والمؤازرة فى أوقاتى العصيبة ما لم أر بعضه من أقرب قريب إلىّ ، وأن صداقتنا التى ترجع إلى ما ينيف على نصف قرن قد هوّنت على كلينا متاعب الحياة وضاعفت لنا طيباتها . فلما أراد الله أن يختاره إلى جواره كتبت فى الأهرام بتاريخ ٥ مارس سنة ١٩٥١ الكلمة التالية :

« اليوم يدفنون مرشدى فى الملمات ، ومنجدى فى الأزمات ، الذى حمل عنى الضيم وشاطرنى الأفراح والأتراح خمسة وخمسين عاماً ، وهو يتركنى الآن مريضاً مقعداً محروما مؤاساته وعطفه ، فاللهم رحمة له ولى واللهم صبراً جميلا . »

وأما سعد فكنت أحبه وأقدره وأعتقد أنه بالرغم مما يأخذونه عليه — والكمال لله وحده — كان رجلا عظيما مخلصاً فى خدمة وطنه .

كان الود متينا بين سعد وعبد العزيز كما سبق لى القول فما كان يخطر ببال أن تحل محله هذه القطيعة التى أراد الله أن تبقى إلى أن انتقل سعد إلى جوار ربه .

على أن الحق يقتضينى القول أن سعداً عالج غير مرة أن يزيل ما بينهما من الوحشة ولكن عبد العزيز أبى وأصر على الإباء والأرجح عندى أن الباعث على ذلك إنما هو ماقذف فى رُوعه من أن سعداً أراد أن يبيح دمه بتلغراف (نبتت) الشهير الذى بعث به إلى مصر وعبد العزيز و بعض أعضاء الوفد على الباخرة فى طريق عودتهم إليها .

١٧ – سبب الخلاف

أوجز فيما يلى سبب الخلاف المؤسف بين الرجلين :

لما دعى سعد وصحبه للقاء اللورد (ملنر) فى لندن عقب عودة بعثة (ملنر) من مصر رأى أعضاء الوفد أن يستعينوا بعدلى يكن باشا فى محادثاتهم مع الانكليز فأبرقوا إليه أن يوافيهم فتردد الرجل ،ولما ألحوا عليه سافر ولعب دور الوسيط الحاذق بين سعد وملنر معالجاً بكياسته وحسن سياسته كثيراً من النقط الخلافية التى كان كل من الفريقين يتشبث فيها برأيه . ولكن وسوس أناس لسعد بأن عدلى كان يتخطاه فى بعض الأحيان ، وتوهم ظلما أن هذا التخطى منبعث عن نية غير سليمة ، و يعلم الله أن الرجل برىء من هذه التهمة كما عرف سعد هذا فيما بعد . إلا أن هذا الظن حدا أحد مكاتبى الجرائد المصرية الذين كانوا فى باريس (وهو الأستاذ أحمد نجيب مراسل جريدة الأخبار آنئذ ثم التحق بوزارة المالية موظفا فيما بعد) أن يبرق إلى جريدته أن عدلى يسد الأبواب فى وجه الوفد و يعرقل المفاوضات . وبعد ذلك بأيام أرسل سكرتير الوفد مصطفى النحاس برقية إلى نفس الجريدة جاء فيها (أن عدلى كارثة على الوفد) . علم عدلى بالبرقيتين فخرج عن حلمه وخاطب أعضاء الوفد الذين كانوا مجتمعين بمكتب سعد بلهجة خالف بها مألوفه من الرزانة والهدوء .

نفى سعد باشا أن له علماً بالتلغرافين اللذين نشرتهما جريدة الأخبار إلا أن عبد العزيز سمع بعدئذ من أحدهم أن سعداً هو الذى أوعز بهما ، فكبُر الأمر على نفسه وتوهم أن سعداً يضرب أنصاره ومعينيه من الخلف ، ولما كان هذا تصرفا لا تتحمله ذمته وجد على صديقه القديم ، وزاد فى حنقه ما كان يتقوّله على سعد بعض الأعضاء ، وللناس عندنا براعة عجيبة فى تلفيق التهم و إثارة الظنون .

لم يمض على هذه الحوادث وقت طويل حتى صدر التبليغ البريطانى الذى جاء

فيه أن الحكومة الانكليزية ترغب فى المفاوضة مع حكومة مصرية موثوق بها .

تداول الوفد فى هذا التبليغ واقترح أن يشكل عدلى باشا هذه الحكومة . فشجر خلاف تأتى منه أن بعض الأعضاء قرروا العودة إلى مصر . قبل ذلك بمدة ليست باليسيرة كان عبد العزيز كتب إلى الرئيس أنه اعتزم الرجوع إلى مصر لأسباب عائلية وصحية ، وقطع فعلا تذكرة السفر على إحدى بواخر شركة (مساجرى ماريتيم) ذلك أن والده المغفور له حجازى بك عمر كان قد انتقل إلى جوار ربه وابنه فى الخارج فلم يستطع أن يقوم بواجبه نحو ذلك الراحل الكريم الأخلاق . ولم يرد عبد العزيز العودة إلى مصر حال وصول نبأ الوفاة إليه لأنه كان منهمكا فى وضع مشروع الدستور المصرى . فلما أتمه ووجد أن الظروف تسمح له بالسفر استأذن وحجز محله على الباخرة ، ثم شجر الخلاف الذى أشرت إليه آنفا فقرر حضرات لطفى السيد ، ومحمد على علوبة ، والمغفور لهما محمد محمود ، وحمد الباسل ، أن يسافروا على نفس الباخرة ، وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٢١

قبيل موعد السفر ذهب عبد العزيز مع حضراتهم لتوديع سعد باشا ، فقال له عبد العزيز : إن إخوانى عائدون إلى مصر يوالون فيها خدمة القضية القومية و يكونون تحت تصرفكم . فكان جواب الباشا : إننى فى غنى عن خدماتهم و إننى مطمئن . فأوجس عبد العزيز أن تكون وراء هذا القول الشديد نية مبيتة ، وحذر على ماهر وهو فى توديعهم بمحطة باريس من أن يرسل الباشا تلغرافاً مثل ما أرسل فى حق عدلى وقد صدق حدسه ، إذ وصلهم وهم على ظهر الباخرة لاسلكى من المرحوم جورج بك خياط يبلغهم نص التلغراف الذى بعث به سعد باشا إلى لجنة الوفد قائلا ما معناه : (نبتت فكرة عند بعضهم ترمى إلى دخول المفاوضات بلا شرط ولا قيد فاحذروهم) .

كان هـذا التلغراف القطرة التى طفحت بهـا الكأس ، إذ دخل فى رُوع عبد العزيز أن سـعداً كان يقصده بهذا التلغراف فيمن يقصد فقاطعه وترك الوفد بلا رجعة .

قد يقول المتسامحون فى أمر الكرامة : على الذى يشتغل بالسياسة أن يوسع صدره لمثل هذه المكاره فللسياسة أساليبها بل وأكاذيبها . فالسياسى يروض نفسه عليها . أمّا إن غضب لكل ما يصادفه منها من الهنات فى عمله فهو لا يصلح لها . هذا حق . وأنا أعتقد أن عبد العزيز ، وهو أعظم قاض أنجبته مصر وأقوم الناس أخلاقا ، لا يستطيع أن يجول طويلا فى ميدان السياسة ، فقد أثبتت الحوادث صدق هذا الاعتقاد فيه فكلما اقتحم عبد العزيز ميدان السياسة — وما يقتحمه إلا مكرها — وقع التنافر بين أخلاقه العالية و بين أساليبها وكان سبباً لخروجه منها على صورة غير مألوفة عند رجالها . و إذا كان عبد العزيز دقيق الشعور بكرامته يضعها فوق كل شىء فإنه يجعل تصرفاته منسجمة مع هذا الخلق الكريم ، مبنية على أدق مقتضيات الذمة والشرف بل يذهب فى ذلك إلى حد المبالغة . من ذلك أنه أبى بقوة وعناد أن يقبض قرشا واحداً من أموال الوفد طيلة إقامته فى أوربا ، فكانت نفقاته جميعها من ماله الخاص القليل جداً آنئذ . إذ كان كل ما يملكه من نقد مبلغ ألفى جنيه استودعنى إياه قبل السفر ، فلما عاد كان قد استنفده كله ! .

ذهب بعض أعضاء الوفد إلى لندن عام ١٩٢٠ وهو معهم لمفاوضة اللورد (ملنر) فجعل الوفد مبلغاً قدره ثمانية جنيهات مصروفا يوميا لكل عضو ، وتقاضى الجميع هذا المبلغ طول مدة إقامتهم فى لندن إلا عبد العزيز الذى رفض بإصرار ورضى أن يقيم فى فندق صغير بجوار فندق (كارلتون) الفخم حيث نزل زملاؤه .

هذا هو الرجل وهذه هى أخلاقه وتصرفاته فلكل أن يحكم عليه أو عليها بما يمليه عليه وجدانه .

١٨ — رغبة سعد فى إزالة الخلاف

عاد سعد باشا إلى مصر فى أبريل سنة ١٩٢١ وقوبل فيها بما لم يقابل بأجمل منه أعظم الفاتحين . ففكر فى لمّ شعث الوفد و إزالة أسباب الجفاء بينه و بين الأعضاء الذين انقطعوا عنه . فأراد أن يزور عبد العزيز فى منزله بمصر الجديدة . قابلنى المرحوم جورج بك خياط وكان عبد العزيز معى فأخبره أن سعد باشا سيزوره بمنزله فيحسن أن يعود إلى المنزل ليكون فى استقباله ، ولكنه لم يفعل رغما من إلحاحى عليه . و بعد أن ترك له سعد باشا بطاقته اكتفى عبد العزيز بأن مر ببيت الأمة وأودع فيه بطاقته أيضا ولم يقابل الباشا .

١٩ — رغبة سعد فى مقابلتى

بعد ذلك بزمن طويل وسعد آنئذ رئيس الحكومة لقينى المغفور له فتح الله باشا بركات وسألنى عن سبب انقطاعى عن سعد باشا فأجبته أن ليس هناك أى مانع يمنعنى سوى ضنى بوقت دولته . فقال : ولكنه يريد أن يراك فاطلب موعداً من السكرتير . اتصلت بالسكرتير تليفونياً ، وكان آنئذ على بك إسماعيل على ما أذكر ، فلم أتلق منه رداً بتحديد موعد . ولما مضت أيام خاطبنى فتح الله باشا مظهراً استغرابه لأنى لم أسع لمقابلة الرئيس . فقلت أنى سعيت ولكنى مازلت منتظراً تحديد الموعد . استوضح فتح الله باشا السكرتير فكان رده : (أنا لا أعرف يوسف نحاس ، ولذلك لم أعين له موعداً) . أدهش هذا الرد فتح الله باشا واتصل بى وأخبرنى أن سعد باشا ينتظرنى فى بيت الأمة صباح اليوم الثانى لعيد الفطر . كان عند سعد باشا زائرون كثيرون فلما انصرفوا أمر بألا يدخل علينا أحد ثم ابتدرنى بكلمات قاسية قائلا لى : اننى انقطعت عنه ونسيت ما بيننا من صداقة قديمة بل طعنت فيه بقلمى و بلسانى .

نزل علىّ هذا الكلام نزول الصاعقة ولم أتمالك أن أجبته فى شىء من القوة :

(يا باشا إنى كنت ملازما منزلك ليلا ونهاراً أيام كان الرصاص يدوى فى أركان هذا المنزل والخطر يهدد كل من يرتاده . أما الآن وقد بلغت الذروة فقد أفسحت المجال لغيرى من أصدقاء السراء . وأما عن طعنى فى دولتك فى الصحف وفى المجالس فمن السهل عليك تحقيق الأول ومجموعة كل الصحف تحت أمرك . فمر بمراجعتها فإن عثرت على سطر واحد يشتم منه رائحة أى نقد أو تجريح فأنا إذن معترف بالطعون الشفوية التى يتعذر تحقيقها . أما إذا وجدت عدة مقالات مدحتك فيها بما أعتقده حقاً فلعلك تقتنع بأن هذه التهم دس وضيع . فأنا ياباشا لست ممن يطيقون أن تمس كرامته ووفاؤه بمثل ذلك ، فاسمح لى بالانصراف على أن أعود إليك بعد إذ تكون قد أتممت تحقيقك) . وخرجت متأثرا وحزينا .... غفر الله للدساسين المشائين بنميم فما أكثرهم عندنا وما أبرعهم فى تلفيق التهم !! فمن من عظائنا نجا من شرهم ؟ ألم يكن سعد نفسه هدفاً لها ؟ فكيلت له التهم جزافاً وأوضعها أنه استحل لنفسه أموال الوفد !

كنت على أهبة السفر إلى الخارج فمررت على بيت سعد باشا مبكرا وتركت له بطاقتى للاستئذان فى السفر . ثم يممت منزل فتح الله باشا المجاور لبيت سعد لنفس هذا الغرض فلما رآنى وكان متأهبا للخروج أدفع البطاقة إلى خادمه نادانى وقال : لعلك أكتفيت بالبطاقة عند سعد باشا أيضا ؟ أجبت : نعم لأن الساعة مبكرة لا تسمح بإزعاجه . فركب معى سيارتى وذهبنا إلى بيت الأمة حيث كان الرئيس جالساً فى غرفة مكتبه . فتركنى معه فتح الله باشا وانصرف . فقال لى سعد باشا وهو هاش : تحققت أنهم ظلموك فيما نسبوه اليك وأصارحك الان أنى ما صدقتهم قط ولكننى متأثر منك بسبب صديقك عبد العزيز فهمى الذى يطعن فىّ بأقذع الألفاظ . وذكر لى بعضها فأنكرت سماعى لها فقال : هل تقسم بشرفك إنك لم تسمعه يتفوه بها ؟ قلت : ما قيمة هذا الطعن فى نفوس عارفيك ؟ أو ليس من

سبيل الى التصافى والتصافح ؟ أجاب : هذا ما أرجوه وانى مستعد أن أضرب صفحا عن كل ما مضى . فأكدت لدولته أننى بمجرد عودتى من أوربا سأبذل قصارى جهدى لإنجاح أعظم أمنية أتمنى تحقيقها .

على أن عبدالعزيز عاد إلى بيت الأمة قبل ذلك لما اعتقل الإنكليز سعداً المرة الثانية مع بعض أنصاره وأبعدوهم الى جزيرة « سيشيل » فارتجت البلاد لتجدد هذا الاعتداء الفظيع على الزعيم ، وكان فى مقدمة الذين هرعوا الى بيت الأمة عبد العزيز فهمى الذى قابل أم المصريين وأبدى لعصمتها حزنه والعبرات تكاد تخنقه . ولكن بعض الشبان المتحمسين استثاروه بكلمات نابية وصاح أحدهم فى وجهه (إلاَّ من تاب) فكبرالأمر عليه وانصرف ، ولم يعد إلى بيت الأمة بعدها أبدا .

٢٠ – متابعة السعى لإزالة الخلاف

تعاقبت الأيام وتوالت الحوادث الى أن أصبح سعد باشا رئيساً لمجلس النواب ، فدعانى ذات يوم إلى بيته فذهبت إليه ظهراً وصعدت إلى الطابق الأعلى حيث كان الباشا معتكفا بسبب وعكة بسيطة ، فلما جلست إليه أخذ يحدثنى عن عبد العزيز زهاء الساعتين موجهاً إليه ثلاث عشرة مسألة كل واحدة منها أخطر من الأخرى . وأنا أصغى إليه ولم أنبس ببنت شفة . وكانت ممرضته الألمانية تدخل علينا من وقت إلى آخر حاملة كأساً صغيرة من الدواء يتعاطاه الباشا ، ثم يستأنف حديثه بلا توقف ولا تعب . وعندما انتهى من حديثه قال لى : أجب يا أستاذ على هذه الأشياء ، ما لى أراك ملتزماً الصمت ؟ ، قلت : انى عاجز عن الإجابة ولا أستطيع مجاراتك فى هذا المضمار وأنت رجل هائل فى منطقك وفى ذاكرتك . على أنه لم يعلق بذهنى مما سمعته من دولتكم الآن الا شىء واحد بقى راسخاً فى ذاكرتى هو ما قلته لى عام ١٩٢٠ حين التقينا بمدينة (فيشى) أعيده على مسامعك بنصه (إذا حال حائل بينى و بين

الوفد فلا آمن عليه سوى عبد العزيز فهمى) هذا كان حكمك على الرجل وأنت فى حالة الرضا ، فهو الحكم العادل الذى لا تشوبه شائبة الغضب والانفعال فقال :

طيب يا سيدى إنى مستعد أن أنسى كل ما حصل من صديقك ، وأن أمد له يدى . فأطريت كرم أخلاقه ووعدته بأن أهيىء فرصة للمقابلة .

أسرعت الى عبد العزيز ولم أذكر له طبعاً ما وجهه إليه سعد من مآخذ وإنما أبلغته أن الباشا طلبنى وأبدى لى رغبة فى مصالحتك ، فهل تبقى مصراً على عنادك ؟ قال : لا . إنى أقبل بسرور أن التقى به ولكن على شريطة أن تكون المقابلة فى سراى آل عبد الرازق باشا . قلت : ما هذا ؟ وما دخل آل عبد الرازق فى شأن خاص بك وبسعد ؟ أتريد أن تكون زيارة الباشا لهم ككفارة عن قتل المغفور له صديقى وصديقك حسن باشا عبد الرازق الذى اتهم الوفد بقتله ؟ لم لا تتقابلان فى بيتى مثلا ؟ فرد علىّ قائلا : وهل تظن أنه يرضى أن يتم الصلح فى بيتك ؟ أجبته : سأحاول فإن أبى لزمته الحجة .

قابلت سعد باشا وسألته : هل يسمح بأن تكون المقابلة عندى ؟ ، فرد علىّ من فوره : بيتك بيتى ويشرفنى أن أدخله فى كل وقت ، وألقى فيه من تريد . وأقول والحزن ملء جوانحى . ان عبد العزيز امتنع لأن العزة تغلبت فيه على كل اعتبار آخر . وأضيف أن اقحامنا دائماً الخلاف فى الرأى فى العلاقات الشخصية عيب يستغله خصومنا ضدنا أربح استغلال ، فمتى يتاح لنا يا ترى أن نتحلل منه وأن ننظر إلى مسائلنا القومية نظرة خالصة لوجه الوطن منزهة عن كل نزعة شخصية فتقوى شكيمتنا وتستقيم أحوالنا ؟ ؟

الباب الثانى

عبد العزيز فهمى

١ — عبد العزيز والسلطان حسين

أوردت آنفاً بعض الشواهد على إرباء عبد العزيز بكرامته أن تمس عن قرب أو بعد، وله فى سبيلها غضبات وانفعالات تخرجه أحياناً عن حلمه وأدبه الرائع، ويحضرنى شاهد آخر أثبته هنا لإبراز هذا الخلق فى الرجل على أكمل صورته.

شاءت السياسة البريطانية أثناء الحرب الماضية أن تخلع الخديوى عباس حلمى وأن تبسط حمايتها على مصر وتجلس الأمير حسين كامل على العرش كسلطان. كان المغفور له حسين رشدى باشا رئيساً للحكومة وقائممقام الخديوى. فلما فاتحه الإنكليز بما كانوا ينتوون وقع الرجل فى الربكة والحيرة، واستدعى صديقيه سعداً وعبد العزيز لاستشارتهما فيما يعمله ... دخل عبد العزيز على رشدى باشا، وكان سعد باشا قد سبقه إليه فوجد رشدى يتكلم ببعض الإبهام فابتدره بصراحته المعهودة قائلا: لعل الحادث الذى تومىء إليه خاص بخلع الخديوى؟ أجاب: نعم. وبم تشيران علىّ؟ فرد عبد العزيز من فوره: اذا أشكل على المرء أمر من الأمور وتردد فى واجبه فليرجع الشأن إلى قواعد الأخلاق. وانصرف.

وقد تعددت مظاهر عدم ارتياح عبد العزيز لهذا الانقلاب إذ امتنع عن مقابلة السلطان الذى كانت تربطه به معرفة سابقة وكان محامياً عنه فى بعض قضاياه.

خشيت على صديقى عواقب هذه المقاطعة. وكانت الأحكام العرفية الإنكليزية تتصرف فى حريات الناس بلا قواعد ولا ضوابط، فما زلت به حتى أقنعته بطلب المقابلة وكان السلطان آنئذ فى قصر «رأس التين» فسافرنا معاً إلى الإسكندرية وقصدنا مكتب المغفور له سعيد باشا ذو الفقار كبير الأمناء. فلما علم أن زيارتنا لطلب عبد العزيز المثول بين يدى السلطان بدا الارتياح على وجهه وسألنا عن الفندق الذى نزلنا به ليتصل بنا تليفونياً فى وقت الغداء. وكنا في نزل (بونار) وبينما نحن على المائدة تكلم سعيد باشا تليفونياً مخبراً أن عظمة السلطان ينتظرنا أنا وعبد العزيز للمثول

بين يديه فى الساعة الثالثة بعـد الظهر . أجبت بأنى لم أطلب المقابلة ولم أحضر معى من القاهرة اللباس الرسمى لها ، فقال لا بأس من حضورك مع عبد العزيز بملابسكما العادية لأن مولانا يعلم أنكما كلٌ لا يجوز انفصامه .

كانت مقابلة أبدى فيها السلطان أرق مظاهر المجاملة والإكرام زهاء ساعة، فكان يتكلم بمرح و بغير كلفة فى مختلف الشؤون وعبد العزيز جالس أمامه جلسـة تأدب متناه مطرقا محنىّ الظهر مكتوف الذراعين حتى عجبت من احتماله البقاء على هذه الحالة طول زمن الزيارة . ومن الظريف أن عظمة السلطان كان كلما تطرق إلى حديث هام يقول « يمكننا أن نسترسل فى كلامنا و إن كان يوسف بك ... » ولا يزيد . تـكررت هذه العبارة مرتين وفى الثالثة قاطعه عبـد العزيز قائلا : يا مولاى إن يوسف بك وطنى أكثر منى . فعقب عظمته قائلا : نعم ومنى كذلك . وهذه شهادة لى فى الوطنية لها جليل قدرها لصدورها من سلطان البلاد !

كان السلطان يتوخى فى هذه المقابلة إرضاء عبد العزيز باطراء مناقبه وصفـاته الممتازة ، وفى الختام أراد عظمته أن يكلل تقديره له بمديح ظنه بنية طاهرة سليمة سيدخل أكبر السرور على نفس صديقى ، وكان عبد العزيز قد ترافع حديثاً استئنافياً فى قضية النيابة ضد . ع . ب ، وكانت مرافعته من الإبداع بحيث نشرتها جريدة « الأهرام » حرفياً ، فقال السلطان : « إننى قرأت مرافعتك البديعة فأنت من أعاظم المحامين ، وقد نجحت فى تبرئة هذا المذنب » فما كاد عبد العزيز يسمع هذه الكلمات حتى انتفض واقفاً وأخذ يلوح بيديه و يصيح : لقد أتعبتنى كثيراً يامولاى .. لقد أتعبتنى كثيراً . فشعرت كأن الأرض شقت لتبتلعنى وقلت : وحقك يا مولاى أن . ع . ب . برىء . فوقف السلطان وردد بدوره : نعم إنه برىء . و ربت على كـتف عبد العزيز وخرجنا من لدنه ، فأخذت أعنف صديقى على تهوره بهذا الشكل . فصاح بى : كيف يمكن أن أقبل من أى إنسان أن يتهمنى بأنى أترافع لأبرىء المذنبين وهذه وصمة كبرى

للمحامى الشريف . قلت : ولكن السلطان لم يكن يقصد المساس بك كمحام ، بل مدحك وتكريمك ، و إن كلماته بعيدة كل البعد عن نية الإساءة إليك ، فأجاب : أنا متأكد من ذلك ولكن أعصابى لم تستطع تحملها .

وجرى له مع عظمة السلطان حادث آخر من نفس هذا النوع .

كان صديقى قِبل أن يتولى الدفاع عن « جورج فيليبيدس » فى قضيته المعلومة وتابع التحقيقات التى كانت طويلة جداً بما هو معهود فيه من ذمة ودقة حتى هجر منزله فى مصر الجديدة ليبيت طول مدة التحقيق فى مكتب المرحوم كامل حسين المحامى ، وكان عبد العزيز قد أشركه معه فى الدفاع ، كما أشرك معه وهيب بك دوس . إلا أنه لسبب متعلق بالأخلاق لا أرى ذكره هنا تخلى عبد العزيز عن الدفاع وكان قد تناول مبلغ خمسمائة جنيه كمقدم أتعاب اقتسمه مع زميليه كامل حسين والأستاذ وهيب دوس ، فرد المبلغ بأكمله إلى « فيليبيدس » من ماله الخاص وضاع عليه ما كان قد دفعه لزميليه .

فى أثناء رحلة عظمة السلطان فى الصعيد ومثول محامى بنى سويف بين يديه تلفظ عظمته بعبارة بشأن هذه القضية عدها عبد العزيز نقداً له ، فما كان منه الاَّ أنه كتب احتجاجاً شديد اللهجة ودفع به إلى المرحوم يحيى باشا ابراهيم رئيس محكمة الاستئناف ذاكراً فيه أن العلاقة الوحيدة التى تربطه بالحكومة هى عضويته فى المجلس الحسبى الأعلى فهو يستقيل منه تلقاء ما وجهه إليه عظمة السلطان من نقد ، فعالج يحيى باشا عبثاً أن يحمله على العدول ، فلما أعيته الحيلة قال له «إن الحكومة هى التى عينتك فأنا غير مختص بتسلم هذه الاستقالة » . فما كان من عبد العزيز إلا أن كتب على ورقة الاستقالة شرحا إلى رئيس الحكومة المرحوم رشدى باشا جاء فيه : أن رئيس محكمة الاستئناف أبى تسلم هذه الاستقالة فهو يحولها إلى دولته . ولم تهدأ ثورة نفسه إلاَّ عندما نشرت الحكومة بلاغا رسمياً قالت فيه : إن عبد العزيز فهمى المحامى فوق

كل مظنة أو تجريح فيما يتعلق بشؤون مهنته .. ولم تمض أيام معدودة على هذا الحادث حتى اختار الله المغفور له السلطان حسين إلى جواره .

٢ — علاقتي بالسلطان حسين

كان المغفور له السلطان حسين يعطف عليّ ، وقد أمرني أن أكثر من المثول بين يديه ، فإذا تأخرت مرة جاءني من السراى أن مولانا قد حدد لى موعداً للمقابلة .

كان السبب فى عطف عظمته عليّ أنه عرف المرحوم والدى ، وكان يعده من خيرة المزارعين ويمضى معه أوقاتاً فى التحدث عن شئون الفلاحة ، وهذه الشئون نفسها كانت مدار الكلام بيننا ، فتبينت شغف عظمته بإنجاح الزراعة فى مصر ، وتحققت أن الرأى العام لم يخطىء إذ نعته (بأبى الفلاح) .

كان رحمه الله كثير التدخين وكلما أشعل لفافة قدم لى أخرى وأمرنى بالتدخين ، فما كان يسعنى إلا الامتثال . وفى آخر مقابلة اعترت السلطان غيبوبة فذهلت وأسقط فى يدى ولكنها لم تدم أكثر من ثوان ثم أفاق . وانصرفت آسفاً وشاكراً لله حسن العقبى . رحمه الله رحمة واسعة ، فإنه كان متجملا بصفات جليلة ، غيوراً على مصالح البلاد وكريماً كرم ملوك العرب .

٣ — عبد العزيز والملك فؤاد

لم يسعدني الحظ بالتعرف إلى المغفور له الملك فؤاد قبل جلوسه على عرش مصر . ولما كنت بطبعى لا أميل إلى المظاهر الرسمية وأتحاشاها استحياء قدر المستطاع لم أقدم طلباً للمثول بين يدى جلالته إلى أن عين حسن نشأت باشا وكيلا للديوان الملكى .

عرفت نشأت عام ١٩١٩ إبان الحركة الوطنية الكبرى ، وكان مع على ماهر

وحلمى عيسى وآخرين من زعماء الموظفين الذين قادوها وانصرفوا إليها بكل قواهم . فلما تبعت الوفد إلى باريس عقب إطلاق سراح المعتقلين فى مالطة لقينى نشأت وطلب إلىّ ملحاً أن أكتب له من باريس لاطلاعه على ما هو جار فى الوفد ودفع إلىّ بما يسميه الإفرنج (مفتاحاً) أعنى طريقة كتابية يمكن بها رسم كلام ظاهر مفهوم وفيه رمز سرى يمر به الرقيب فلا يلحظه .

استمرت علاقتى بنشأت علاقة صداقة متينة لما ألفيته فى ذلك الشاب من أخلاق كريمة وصفات عقلية عالية يمتاز بهـا . وكنا نلتقى مساء كل يوم عقب خروجه من السراى فى مقهى صغير كان يوجد بجانب فندق (سميراميس) ونتجاذب أطراف الحديث .

وكان نشأت يتغنى بمواهب الملك فؤاد تغنى العاشق بمعشوقه فبث فى قلبى محبة جلالته ، وعندما أوعز إلىّ بطلب مقابلته بادرت بذلك . وكانت مقابلة استغرقت حوالى ساعة وثلاثة أرباع الساعة . تبسطنا أثناءها فى الحديث — والحديث ذو شجون — فكاشفنى الملك ، على الرغم من أنه لم تكن لى به معرفة سابقة كما أسلفت بأمور تتعلق بشخصه منها : أنه كان فعلا يطمح فى أن يعين حاكماً على ألبانيا ، فان لم يكن فعلى طرابلس الغرب . ولكنه الآن راغب عن أعباء هذه الوظيفة على حد قوله . ويقصد بالوظيفة العرش ، وإنها لكبيرة على نفسى ما يعتزمونه الآن من إنشاء برلمان يملى علىّ إرادته . فتجهمت حين سمعته يتفوه بهذه الكلمات ، فأدرك من فوره امتعاضى منها فبادر بتلطيف قوله بما يزيل عنى هذا الامتعاض .

كان المرحوم عبد الخالق ثروت باشا رئيسا للحكومة وقتئذ وفى سياق الحديث ذكر لى جلالته عن بعض أعضاء الوزارة أموراً لا أرى إثباتها هنا ، ثم قال : إن عبد العزيز فهمى متضامن مع أولئك القوم وقد انقطع عن زيارتى مع أنى أقدره وكنت أسمح له دائما أن يبدى لى آراءه بصراحته المعهودة ، بل كان أحيانا ينتقد بعض ما أعمل

فأتقبل انتقاده بصدر رحب . وأنا أعلم أنك أعز صديق له فلعلك تقنعه بخطئه فى امتناعه عنى . فقلت : إن عبد العزيز يكون سعيداً بالمثول بين يدى جلالته . ذهبت مهرولا إلى عبد العزيز و بسطت له ما كان من أمر المقابلة الملكية ونقلت إليه الكلام الطيب الذى فاه به الملك عن شخصه وألححت عليه إلحاحا ليس بعده إلحاح فى أن يطلب مقابلة الملك فاحتج بأنه مريض وكان فعلا ملازماً فراشه لوعكة بسيطة . وضعنى عبد العزيز بتصرفه هذا فى أحرج المواقف ، ولما اجتمعت بنشأت أبلغنى أن الملك يرغب فى مقابلتى فصدعت بالأمر .

سألنى جلالته عما عملته مع عبد العزيز فأجبت أن الرجل مريض . فقال لى : سأرسل مندوباً للسؤال عن صحته . فرددت بأن مرضه بسيط لا يستوجب ذلك . فقال لى جلالته : لقد فهمت . وصرفنى من حضرته . ولا حاجة إلى القول إن هذا المركز الذى وضعنى فيه عبد العزيز كان مؤلما لنفسى كل الإيلام ولا سيما أن تصرف الملك كان خليقا بأن يقابل بالنزول على رغبته .

بعد ذلك بزمن عادت المياه إلى مجاريها بين الملك وصديقى و بقيت أنا متوهما أنه غير مرضىّ عنى مستنتجا ذلك من عدة أمور أذكر منها عدم تجديد تعيينى فى المجلس الاقتصادى الذى كنت عضواً به منذ تأسيسه ، وعدم السماح لى ولباقى أفراد أسرة المغفور له سابا باشا بالمقابلة لتقديم شكرنا على مجاملة جلالته لنا فى وفاة فقيدنا العزيز .

وأذكر منها أيضا أن المرحوم نخلة المطيعى باشا وكان وزيراً للزراعة أسر إلىّ بأنه عرض على الملك أسماء أعضاء اللجنة التى انتخبها لتنظيم مؤتمر القطن الدولى فى مصر ، فلما وقع نظر جلالته على اسمى قال لنخلة المطيعى : ألا تفضلون تعيين ألفريد بك شماس بدلا من يوسف نحاس ؟ فأجابه : يامولاى إن يوسف نحاس هو الذى يصلح . فسكت جلالته ولم يلح فى استبعاد اسمى . قلت لنخلة : إنك لا تعلم طبعاً أن الملك غير راض عنى . فلما سمع منى ذلك بدت عليه الحيرة والارتباك وقال : ربنا يستر !

كنت من أعضاء لجنة المعرض الذى أقامته الجمعية الزراعية عام ١٩٢٧ والذى نجح نجاحاً باهراً . وقدعملت مع بعض زملائى فى اللجنة على إزالة سوء التفاهم الذى كان بين الملك والمغفور له الأميركمال الدين حسين رئيس الجمعية الزراعية لكى يتفضل الملك بافتتاح المعرض فوفقنا وذهبنا جميعاً إلى السراى وعلى رأسنا الأمير لدعوة جلالته لافتتاح المعرض فلبى طلبنا بكل ارتياح و بلطف متناه وأضاف أنه يأذن أيضاً فوق ذلك بأن تسمى « الجمعية الزراعية » « الجمعية الزراعية الملكية » وقد أزالت هذه الزيارة ما كان بينهما من جفاء .

عقب انتهاء المعرض أخبرنا المغفور له الأميركمال الدين حسين بأنه سيطلب لأعضاء لجنة المعرض رتباً وأوسمة . فلما خلوت بسموه التمست منه ألا يطلب لى أى شىء لسبب لا أستطيع إبداءه ، فظن الأمير أنى أخشى أن أعطى أقل مما استحق. فقلت : لا ليس هذا هو السبب . فأجابنى : مادمت لا تريد أن تصارحنى به فأنا لا أستمع منك كلاما . فقابلت المغفور له توفيق نسيم باشا الذى كان رئيساً للديوان الملكى وكانت تربطنى به أواصر الصداقة وأفضيت له بما دار بينى و بين الأمير كمال الدين ورجوت منه ألا أمنح شيئاً لأن الملك قد لا يرتاح إلى ذلك . فاذا منح إرضاء للأميركمال الدين ، فهذا ما تأباه علىَّ كرامتى .

دهش توفيق نسيم وقال لى إننى بالتحقيق مخطىء فيما أظن . وطلب إلىَّ أن أعود لمقابلته فى اليوم التالى ريثما يفاتح الملك فى الأمر ، فلما عدت قال لى : إننى سردت على جلالته الأمور التى بنيت عليها استنتاجك لعدم الرضاء عنك فنفى جلالته أن له أى دخل فيها . فاستبعاد اسمك من ضمن أعضاء المجلس الاقتصادى كان من عمل إسماعيل صدقى ، وعدم السماح لك ولأسرة المغفور له سابا باشا بالمقابلة لتقديم الشكر لم يكن لجلالته به علم ، بل هو تصرف يعزى إلى سعيد ذو الفقار كبير الأمناء ، وما ذكره المطيعى لك بشأن لجنة تنظيم المؤتمر فيه بعض التحريف لما جرى من حديث بين جلالة الملك و بينه ، ولم يكن المقصود به على كل حال الإساءة إليك .

ثم قال لى توفيق نسيم : إن الملك يأمرك بطلب مقابلته . فلما مثلت بين يديه أ كرم وفادتى إكراماً أزال ما كان عالقاً بذهنى ، فخرجت من لدنه شا كراً ، و إنى ما دمت حياً لا أنسى لهذا الملك مكرمة طوق بها جيدى ، ذلك أننى لما وقعت فى ارتباك مالىّ أوشك أن يذهب بجميع ما أملك من جراء تورطى فى المضاربة ببورصة القطن المشئومة وكنت على أهبة السفر إلى الخارج لحضور أحد مؤتمرات القطن ألح علىّ عبد العزيز فهمى بطلب مقابلة الملك للاستئذان فى السفر كمألوف فى السنوات الماضية .

تشرفت بالمقابلة فى اليوم التالى لتقديم الطلب وقال لى جلالته فى سياق الحديث : كيف حالك ؟ أجبت : إننى بخير مادام راضياً عنى ، فعاد وكرر السؤال عن حالتى المالية التى كان قد بلغه خبرها . وكأنى بجلالته ملما بجميع شؤون رعيته ما جل منها وما دق ، فبدا علىّ الاضطراب إلا أن جلالته شجعنى قائلا : (يا يوسف بك أنت من خيرة رجالنا و إن الله سيزيل عنك أسباب اضطرابك و يمكنك أن تعتمد علىّ فى كل شيء) فتفجرت الدموع من عينى وقلت : إنك يا مولاى قد أسرتنى بهذه الكلمات وضاعفت من عزمى على مواجهة الشدائد و إن شاء الله ستحقق نبوءتك الكريمة يا مولاى . وقد كان وألف حمد لله . ومقتاً للمضاربة الهدامة .

وليت مواطنىّ يتعظون بما أصابنى من المضاربات القطنية .

جاهدت بعد الذى جرى لى فى كل مناسبة سانحة لحمل الحكومات على تعديل لائحة « بورصة العقود » بأن تحظر العمل على غير المحترفين الذين يقيدون أسماءهم فى السجل التجارى لأن المحاكم تعتبر المضارب تاجراً وأعمال المضاربة أعمالا تجارية . دافعت عن هذا الرأى فى مؤتمر القطن الذى انعقد بمدينة (براغ) عام ١٩٣٣ ، ثم فى المؤتمر الذى أقيم فى مصر وظفرت منهما بقرار يستهجنون فيه السماح لغير المحترفين بمزاولة أعمال البورصة مضار بين لأن دخولهم فيها يفسد جهازها ، وما زلت

مواليًا الإلحاح ولكنى للأسف لم أفز للآن بأن يتخذ إجراء إيجابى حاسم يحفظ للمصريين ثروتهم وكرامتهم اللتين تقدمان قربانًا على مذبح البورصة .

٤ — الملك فؤاد يحمى مرافق الفلاح

و إذ تطرق بنا الحديث إلى مسائل القطن أرى أن أثبت هنا ما عملته عام ١٩٢٣ بوصفى سكرتيرًا عامًا للنقابة الزراعية المصرية العامة للدفاع عن مصلحة المنتجين الذين قد استباحت المضاربة النزولية حينئذ أهم مرفق من مرافق ثروتهم .

لما توالى نزول أسعار القطن فى « بورصة العقود » ذهبت إلى الإسكندرية لأدرس حالة السوق عن كثب ، فخرجت من دراستى هذه إلى الاعتقاد بأن هذا النزول مفتعل تضافر على إحداثه فريق المصدرين والغزالين الأجانب فى حين أن العوامل الاقتصادية كانت لا تبرره على أية صورة فوجهنا جهودنا إلى الحكومة طالبين منها مناهضة هذه الحملة المحبوكة الأطراف فلم نجد رغبة منها فى إقالة عثرة السوق .

ولما يئسنا وذهبت جهودنا معها عبثًا خطر لى أن أقدم على عمل غير مألوف فى التقاليد ، وكنت ساعتئذ مقيمًا بأحد فنادق الإسكندرية فتناولت ورقًا من أوراق الفندق وكتبت تقريرًا مسهبًا جدًا وجهته مباشرة إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد و بصفة شخصية وسرية بحتة وكتبت على الغلاف (لا يفتح إلا بيد جلالة الملك شخصيًا) وقد ضمنت هذا التقرير شرحًا وافيًا لحالة السوق وللعوامل الخفية والتيارات المبيتة التى تلعب فى خفض الأسعار خفضًا قد يؤدى حتمًا إلى إفقار سواد الأمة فوق ما هى فيه من مسغبة وشدة احتياج ، وأضفت أنه لا يمكن لكائن من كان أن يتصور أن سليل بيت محمد على وابن إسماعيل العظيم يرضى أن يكون ملكًا على أمة ضربت عليها الذلة والفقر والمسكنة ، وأن السلاح الأكيد المفعول فى محاربة

حزب النزول أن تعلن الحكومة التدخل فى بورصة العقود مشترية مؤكداً أن مجرد هذا الإعلان سيرفع الأسعار إلى مستواها الحق وقد لا تكون الحكومة مضطرة إلى شراء قنطار واحد .

وفى نفس الوقت أرسلت كتاباً إلى المغفور له يحيى باشا إبراهيم رئيس مجلس الوزراء وكان بعزبته فى الشرقية لقضاء أجازة عيد الأضحى .

بعد أن انتهيت من هذا العمل عتبت على نفسى وآخذتها على جرأتى التى دفعتنى للكتابة إلى المليك مباشرة على ورق عادى و بخط مرتجل ، ولم يكن قد سبق لى بعد أن تشرفت بالمثول بين يدى جلالته . على أن الذى حدث أنه ما إن وصل تقريرى إلى يد صاحب الجلالة حتى أمر باستدعاء يحيى باشا إبراهيم من عزبته لمقابلته فوراً ، فلما مثل بين يديه قال له إنه تلقى تقريراً منى ، فرد يحيى باشا : انه هو أيضاً تسلم كتابى وأنه موافق على ما جاء فيه : فرغب إليه الملك أن يدعو مجلس الوزراء حالا ليقرر تدخل الحكومة فى البورصة مشترية ، فصدع بالأمر وأعلن فى ندوة البورصة قرار مجلس الوزراء ، فانتشعت السوق وأخذت الأسعار فى الارتفاع .

و إنما أردت أن أسجل هذه الحادثة لأظهر ما يجب أن يتحلى به أولو الرأى من إقدام على مصارحة الحكام بآرائهم والإلحاح عليهم فى الأخذ بها غير هيابين ولا وجلين عندما يرون الخطر محدقاً بأحد مرافق الدولة ، فإن تهيب مخاطبة من بيدهم الأمر مباشرة يضعف من حجة منتقدى تصرفاتهم على عكس ما يكونون واقعين فيه من مسؤولية إذا دعوا إلى العمل بشجاعة فأحجموا أو تهاونوا ، و إنها للسبيل التى أخذ بها العرب أنفسهم فى صدر الإسلام فعز ملكهم وقويت شوكتهم .

الباب الثالث

ماهر ورفاقه فى ثورة سنة ١٩١٩

أطلق سراح سعد ورفاقه الثلاثة من أعضاء الوفد المعتقلين فى مالطة ، وقد سمح لهم بالسفر الى باريس . وقد برح هؤلاء محطة مصر فى الحادى عشر من شهر أبريل سنة ١٩١٩ ليستقلوا الباخرة التى تلقى مراسيها في جزيرة مالطة ، فيستصحبوا معهم سعداً ورفقاءه الثلاثة الى مرسيليا .

جاء اطلاق سراح المعتقلين فى مالطة نتيجة لتغير الخطط البريطانية بصدد معالجة الموقف . وذلك على أثر قيام البلاد على بكرة أبيها بثورة عنيفة لم يكن أحد يتوقع حدوثها وقد صحبتها استقالة الوزارة الرشدية .

كانت السلطة العسكرية البريطانية قد فكرت بادى بدء فى استمرار وسائل العنف التى شرعها الجنرال « بلفن » ، فدعت أعضاء الوفد الباقين للمثول بين يديه فى مقر القيادة بفندق « سافوى » ووجه اليهم القول بأنه يحملهم مسؤولية الثورة ، فانبرى عبد العزيز للرد عليه . ومما قاله : انه لمح المستر ايموس فى مبنى (السافوى) وهو يطلب استدعاءه لسماع شهادته فى التهمة الموجهة الآن الى أعضاء الوفد .

لبى « بلفن » هذا الطلب وحضر المستر ايموس فقرر بكل صراحة انه لا ذنب للحاضرين فى إشعال نار الثورة التى اندفع اليها الشعب بشعوره . وقد عقب على هذه الشهادة لطفى السيد مضيفاً أن الذى أغضب الشعب انما هو مقابلة مظاهراته البريئة بتقتيل أبنائه ونصح السلطة العسكرية بأن تستدعى رشدى أو عدلى أو ثروت لتأليف وزارة تعمل على ترضية الأمة الترضية الكافية وبهذا وحده تخمد نار الثورة.

وانى أنقل هنا ما نشره لطفى السيد (بمجلة المصور) فى ١٧ من نوفمبر سنة ١٩٥٠ بحروفه (بعد لقائنا لرجال السلطة العسكرية بأيام قلائل كنت مع صديقى عبد العزيز فهمى باشا نسمر فى منزل على شعراوى باشا فوفد علينا صديقنا الدكتور يوسف نحاس بك ، فقال لنا (إنه علم عن ثقة أن السلطة العسكرية الإنجليزية ستفتش بيوت أعضاء الوفد الباقين وتقبض على أربعة منهم لتقتلهم فى اليوم التالى وتصادر أملاكهم)

على هذا الخبر قمت أنا وعبد العزيز باشا ، وركبنا سيارة شعراوى باشا وأوصلت عبد العزيز إلى منزله بمصر الجديدة وذهبت إلى بيتى بالمطرية فأحرقت كل أوراقى السياسية لأنه لم يكن عندى الوقت الكافى لفرزها . وكان من بينها يوميات الوفد التى لم تخل صفحة منها من ذكر رشدى باشا . وعدلى باشا . وثروت باشا . أحرقتها خوفا عليهم من أن يصيبهم ماسيصيبنا من النكال .

جلست بعد حرق هذه الأوراق فى مكتبى أنتظر التفتيش والقبض حتى الصباح ولكن لم يكن من ذلك شىء ، وفى هذا الحين عين الماريشال اللنبى وأعلن أنه يقبل من أى كان ما يراه فى أمر وقف الثورة القائمة وعودة السكينة والسلام إلى البلاد ، فأرسل إليه الوفد تقريرا شرح فيه أسباب الثورة وعزا حدتها إلى تصرف السلطة العسكرية العنيف ونصح بتنصيب واحد من الثلاثة المذكورين سالفا رئيسا للحكومة والإفراج عن المنفيين الأربعة و إعطاء البلاد الترضية الكافية

وعلى أثر وصول هذا التقرير إليه استدعانا وأخذ يناقشنا حتى اقتنع بما فيه فتألفت وزارة برئاسة حسين رشدى باشا وصدر الأمر بالإفراج عن المنفيين وأبيح لنا السفر إلى إنجلترا على باخرة عسكرية إنجليزية) انتهى

لقد دونت يوما فيوما ابتداء من الحادى عشر من إبريل سنة ١٩١٩ بعض الحوادث التى وقعت إلى اليوم الذى بارحت فيه القطر ميمما باريس لألتحق بالوفد المصرى . وسيبرز منها أن مشعلى الثورة وروحها الوثابة كانوا على ماهر مدير إدارة المجالس الحسبية وقتذاك ورفاقه الواردة أسماؤهم فى سياق ما سيجىء

وإنه لمن العدالة الإلهية التى يأتى بها القدر أن يكون على ماهر فى طليعة ثورة سنة ١٩١٩ مذكيا لها محرضا عليها وأن يكون هو نفسه الذى يجنى فى عام ١٩٥٢ ثمارها بفضل ما أقدم عليه مع جيشنا المظفر من عمل جرىء سيخلق لنا مصراً جديدة مجيدة نرجو الله أن يكلأها بعين رعايته . وها هى اليوميات بنصها

١١ ابريل سنة ١٩١٩

وصلت إلى محطة القاهرة فى سيارة على شعراوى باشا مع عبد العزيز فهمي ولطفى السيد حوالى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحا فالتقط لنا مصورو السينما صورة أمام السلم الخارجى للمحطة . وكانت الجماهير على طول الطريق لا تعد ولا تحصى . وفى داخل المحطة زهاء الف نسمة يحملون تصريحا من المحافظة بالدخول وكان الحماس جنونيا وألقيت خطب وقصائد قوبلت بتصفيق ملأ دويه الفضاء ومر اليوم لم يقع فيه حادث ما .

كنت بمزارعى فى فاقوس قبيل أن يطلق سراح سعد فسقطت من ظهر جوادى وانكسر رسغ يدى اليمنى ولهذا لم أستطع إلا أن أودع أصدقائى فى محطة القاهرة يوم سفرهم وقد لحقت بهم فى باريس بعد انقضاء ما يقرب من ستة أسابيع .

تابع يوم ١١ إبريل سنة ١٩١٩

كان ممثلو الموظفين المضربين وعددهم ستة عشر عضواً قد أبلغوا رشدى باشا يوم ١٠ ابريل سنة ١٩١٩ الساعة الثانية بعد الظهـــر أنهم قرروا الاستمرار فى الاضراب ابتداء من يوم السبت ١٢ ابريل إلا إذا قبلت طلباتهم التالية وهى :

١ — اعتراف الحكومة رسميا بأن الوفد المصرى يمثل مصر .

٢ — تصريح من الحكومة تعلن فيه أنها لا تعترف بالحماية إلى أن يبت فى تقرير أمر مصر بمؤتمر الصلح .

٣ — سحب الجيوش البريطانية المسلحة من المدن والقرى وجعل المحافظة على الأمن من شأن البوليس المصرى .

٤ — إلغاء الأحكام العرفية .

وقد قرر الموظفون أن من يعمل منهم فى رياسة مجلس الوزراء يستمرون فى عملهم أسبوعا واحدا ، وألا يضرب الأطباء والذين يؤدون خدمات صحية .

دارت مفاوضات طويلة بين الوزراء : رشدى وعدلى وثروت و بين لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وشعراوى فى مساء اليوم العاشر من ابريل ووضعوا مجتمعين نص تصريح يحقق بعض مطالب الموظفين ولكن البريطانيين رفضوه ولم يوافقوا على نشره .

استمرت المفاوضات وأذاع رشدى على الصحف فى الثالث عشر من أبريل نداء يدعو فيه الموظفين للعودة إلى العمل ولكن صيغة النداء كانت مائعة ولم تتضمن إجابة صريحة لأىّ مطلب من مطالب الموظفين .

فى مساء اليوم العاشر من أبريل كان قد أوعز لطفى السيد إلى الوزراء أن يذهبوا إلى المحطة لتحية أعضاء الوفد عند سفرهم ولكنهم رفضوا ذلك .

الإضراب عام ومستمر إلى اليوم الثالث عشر من أبريل .

يشاع أن اللنبى عرض على حكومته استقالته لأنها وقد أعطته تفويضاً كاملا فى اتخاذ ما يراه. عادت فقالت له (إنها ستصدر إليه تعليمات يوماً فيوماً) وقد رفضت حكومته قبول هذه الاستقالة .

من الشائعات أن أركان حرب البريطانيين ضد اللنبى ، وهم يحبذون اتخاذ وسائل العنف وقد انتهى اللنبى أخيراً بأن نزل على رغبتهم ولكن لندن أبت عليهم ذلك .

علمت أن جريدة الأهرام ستنشر فى اليوم الثالث عشر من أبريل أننى عضو فى وفد سعد وأننى سأغادر القطر قريباً . فذهبت إلى داود بركات مع أشيل صيقلى مساء اليوم الثانى عشر من أبريل ورجوته أن يحذف هذا الخبر خشية ألاَّ يصرح لى

بالسفر ، و إننى أعمل من الآن على حجز محل فى إحدى البواخر وأزمع السفر فى شهر مايو وقد لبى داود بركات طلبى .

يوم ١٢ أبريل ١٩١٩

تقابلت مع حسن نشأت وحلمى عيسى عند عزيز بحرى فى الساعة السادسة بعد الظهر فأخبرانى انه قد تم الاتفاق مع الوزراء مساء الجمعة على نص تصريح يعلن فيه قبول مطالب الموظفين . وقد أقرت الوزارة نص هذا التصريح ، إلا أنه عندما قابل رشدى اللنبى صرح له هذا الأخير بالآتى :

أولا — أن الإنجليز لا يعترفون بأن الوفد يمثل مصر .

ثانياً — لا يعترفون بأن تسمى هذه الجماعة وفدا .

ثالثا — أن البريطانيين سيحاربون هذا الوفد بجميع الوسائل فى فرنسا ولا يسمحون له بالعمل إلا فى لندن و بعد أن يكون قد اعترف صراحة بالحماية .

وفوق ذلك فقد علم الموظفون أن مبعوثين من الحزب الوطنى قد أوعز إليهم الإنجليز بالمطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية و إخراج الإنجليز العسكريين والمدنيين من خدمة الحكومة فوراً ، ور بط مصر بتركيا لإحياء فكرة الخلافة . كل هذا ليسيئوا إلى سمعة المصريين فترفض جميع طلباتهم .

دعا الموظفون رشدى إلى الاستقالة فأبى عليهم ذلك بحجة أن فى عنقه واجبات لبلده . و يقال إن اللنبى وعده بتعضيده و يتهم بعضهم رشدى بأنه قد تغير وتضعضعت ثقة الموظفين به .

قرر مندو بو الموظفين استمرار الإضراب وعدم العودة إلى عملهم فقابل جميع الموظفين هذا القرار بمظاهرة استحسان كبرى .

أخبرنا حلمى عيسى أنه قد تقرر فى جمعية الهلال الأحمر فتح اكتتاب لضحايا الحوادث فرفضت السلطة العسكرية الموافقة على هذا القرار وقد سجل هذا الرفض فى محضر الجمعية العمومية للهلال الأحمر .

قال لنا حلمى عيسى إن الطلبة قد أعدوا من أنفسهم بوليسا منظما للقاهرة ابتداء من اليوم الثالث عشر من أبريل فى الساعة الرابعة بعد الظهر وأخذوا على أنفسهم عهداً أنه منذ هذا الوقت سوف لا يقع اعتداء لا على الأوربيين ولا على الأرمن ولا على السوريين الخ ولو تحدى نفر من هؤلاء الجماهير المصرية .

١٥ إبريل ١٩١٩

أذاعت رياسة مجلس الوزراء دعوة جديدة إلى جميع الموظفين بأن يعودوا إلى العمل يوم الأربعاء فى السادس عشر من هذا الشهر وأن الحكومة تحملهم مسؤولية ما يترتب على رفضهم العودة من النتائج الخطيرة .

سيجتمع بعد ظهر اليوم الأربعة والخمسون مندوباً عن هيئة الموظفين .

قرأت المنشور الذى أذاعه مجلس مديرية الجيزة باللغة العربية متضمنا الفظائع التى ارتكبها الإنجليز فى « العزيزية » و « البدرشين » و « نزلة شوبك » من إشعال الحرائق ، ومن النهب وسبى النساء والتقتيل الخ . وقد قرر المجلس بالإجماع استنكار هذه الأعمال الوحشية وقدم مدير الجيزة — أحمد حمدى سيف النصر — استقالته احتجاجا على ارتكاب هذه الفظائع وتبعت هذه الاستقالة استقالة مأمور الضبط إبراهيم دسوقى أباظه الذى كان ساعد مديره الأيمن ومتضامنا معه فى إثارة هذه الاحتجاجات ضد تلك الفظائع البربرية .

فى صبيحة هذا اليوم نشرت الصحف بلاغا بعدة أحكام فى منتهى الصرامة صدرت ضد محدثى الشغب منها ما قضى بالأشغال الشاقة لمدد تختلف بين خمس عشرة

سنة وعشر سنوات وخمس سنوات . وتفاديا من هياج الرأى العام صدر أمر للرقابة الصحفية بمنع نشر هذه الأحكام فى المستقبل .

علمت أن معاون بوليس شبرا قد هاجمه أربعة عساكر من الجنود الانجليز واعتدوا عليه وسلبوا ما معه وقد استطاع أن يحصل على أرقامهم . فلما رفع شكواه إلى القيادة البريطانية فى فندق « سافوى » قائلا إن عنده شهود إثبات رفضت قبول شكواه بحجة أنه ربما يكون قد أخطأ عند أخذه لأرقام هؤلاء الجنود .

قدم مندوبو الموظفين عريضة إلى عظمة السلطان و إلى الوزراء وممثلى الدول موضحين فيها الأسباب التى تدعوهم إلى الاستمرار فى الإضراب .

اجتمع المحامون الوطنيون فى مقر نقابتهم وتباحثوا فيما إذا كان الوقت ملائما لأن يسافر وفد من الحزب الوطنى إلى أوربا .

ألح الأستاذ أحمد لطفى فى وجوب السفر فعارضه الآخرون وقد نشر أمين الرافعى بيانا أنكر فيه أن الأشخاص الذين يريدون السفر إلى الخارج هم من أعضاء الحزب الوطنى فإن الأستاذ أحمد لطفى قد سبق له أن قدم استقالته من الحزب. فضلا عن أن قانون الحزب يقضى بأن ينتخب أعضاؤه لمدة ثلاث سنوات تنتهى عضويتهم بانتهائها وقد مضى زمن طويل لم تجر فيه انتخابات .

هرب بعض المسجونين فى سجن طره ، وقتل كثير منهم وجرح وغرق آخرون كما هو منشور فى صحف هذا اليوم .

تتناقل الألسنة أنه قد وصلت إلى مصر جيوش بريطانية جديدة .

قال عدلى للطفى السيد قبل سفره (إن فى السودان ثورة) وقد نقل إلىَّ هذا الخبر حلمى عيسى فى الرابع عشر من الشهر الجارى .

يقولون إن إضراب الموظفين يسبب مضايقة لوكالة فرنسا السياسية ولكثير من الأوربيين وهذا الضيق يستشف مما تنشره الصحف الأوربية .

يقولون أيضا إن عدداً كبيرا من الأوانس والسيدات الأرمنيات اللائى قد التجأن

إلى المعسكر البريطانى فى « هليو بوليس » قد اعتدى العساكر الانجليز على عفافهن

ويوزع فى الاسكندرية نداء يناشد الوطنيين بألاَّ يعتدوا على الأرمن بل يكتفى بمقاطعتهم .

الأربعاء ١٦ إبريل ١٩١٩

شاهدت أمام منزلى المسجونين يكنسون ميدان الإسماعيلية ويقود عربات الرش عساكر من الجنود الانجليز والهنود .

إضراب عمال الترامواى ما يزال مستمرا لأنه لم يحصل اتفاق على الرغم من تدخل رشدى لتحسين حالة العمال .

يقال إن عمال العنابر المضربين يتسولون فى الشوارع .

فى مساء هذا اليوم ألقى القبض على نجيب بك فهمى وهو من كبار موظفى السكة الحديدية وأودع ثكنات قصر النيل .

استدعى رشدى باشا على بك ماهر وألح عليه فى عودة الموظفين قائلا إنه هو الذى منع الانجليز إلى الآن من أن يتخذوا وسائل شديدة ضدهم وقد استدعى رشدى باشا عشرة من أعضاء الوفد المصرى لمحاولة إقناع الموظفين بالعدول عن الإضراب والعودة إلى عملهم فصارحوه بأنهم لا يستطيعون التدخل .

وقَّع عشرون ألفاً من رجال الأزهر عريضة بتأييد مطالب الموظفين .

توقفت السكة الحديدية تماماً إلا فيما يتعلق بنقل الجنود البريطانيين .

جميع مكاتب البريد مقفلة حتى شبابيك توزيع الرسائل .

أكثر الحوانيت مغلقة أيضاً إلاَّ فى الأحياء الأوربية .

قدَّم ممثلو الدول الأجنبية إلى الحكومة إنذاراً بأن دولهم ستنشئ مكاتب بريد أجنبية فى القطر إذا لم يباشر موظفو مصلحة البريد عملهم فوراً .

الخميس ١٧ أبريل سنة ١٩١٩

ما يزال إضراب الموظفين مستمرا .

كان عدد الموظفين الذين ذهبوا إلى الوزارات يوم أمس أكثر من عددهم اليوم وقد اختفت سجلات إثبات حضور الموظفين من وزارة المالية بتاتا .

اقتحم الطلبة على رشدى مكتبه وخاطبوه بقولهم (ألم تقدم استقالتك إلى الآن ؟ إن لم تبادر بتقديمها فسنجبرك على الاستقالة بالقوة) .

قابل وفود من داخلية البلاد رشدى وقالوا له (ما دمت غير قادر على عمل شىء ما ، فيجب عليك أن تبادر بالانضمام إلى صفوف الشعب .

قال رشدى باشا لعلى بك ماهر (أن ثمة خطراً شديداً يهدد الموظفين إذا أصروا على موقفهم) فأجابه ماهر بك : وما انتهى إليه قراركم فى المسألة العامة التى وردت فى مطالب الموظفين ؟ أجابه رشدى : لم أستطع عمل شىء فى هذا فرد عليه ماهر بقوله (إذاً فأنت لم تدعنى إلا لتهددنا ؟ اعلم أن هذا غير مجد شيئاً) ثم استقبل رشدى وفداً من الموظفين وقالوا له إنهم لا يعبأون بالتهديدات . إن اللورد اللنبى برفضه لهذه المطالب إنما يخدم بلاده . وأنت ماذا تعمل لخدمة بلدك ؟ ثم قالوا (قد يرغم البريطانيون أحدكم على أن يعترف بالحماية) فرد عليهم بقوله (لن يكون هذا ما دامت وزارتى قائمة) قالوا له (ولكنه قد حصل من مدة أربع سنوات ووزارتك قائمة أن أجبر المصريون على التوقيع مرغمين على التطوع فى الجيش بفرقة العمال وفرقة الجمالة) .

إن رشدى باشا يتلقى إهانات شديدة جداً وقد قال له مدحت يكن فى نادى محمد على (ألم تدعنى للاشتراك فى وزارتك إلا لأنهم بأننى خائن لبلادى ؟ لولا

احترامی لشخصك لكلفت سائق عربتى أن يضرب بالسياط ذلك النفر من الغوغاء الذى وجه إلى هذه التهمة)

فتحت الحوانيت ولكن مكاتب البريد ما تزال مقفلة .

١٨ أبريل سنة ١٩١٩

طبع نداء ليوزع على الأجانب .

حرر العلماء محضراً لجلسة الأزهر التى عقدت فى اليوم السادس عشر من هذا الشهر ووزعوه على الوكالات السياسية ، وأن محاضر مجلس مديرية الجيزة توزع فى محل جروبى باللغتين العربية والفرنسية .

١٩ أبريل سنة ١٩١٩

وصلت برقية إلى بنك «الكريدى ليونيه» مؤرخة فى الخامس عشر من أبريل من الأستاذ عزيز منسى الذى كان مرافقاً لسعد زغلول وصحبه . ورد فى البرقية (صحتنا جيدة . نواصل سفرنا إلى مرسيليا مع الباشوات الأربعة . اخطروا بذلك أسر نحاس. وعبد العزيز . وشعراوى . ولطفى السيد) .

وصلت برقية أخرى من سعد باشا إلى أسرته و إلى أسرة محمود باشا سليمان فى الثالث عشر من هذا الشهر جاء فيها (وصل وفدنا إلى مرسيليا وهو فى طريقه إلى باريس) .

يقال إن مدير مقاطعة (الرون) استقبل الوفد على الباخرة عند وصولها .

يؤكدون أن الأرمن المحتجزين فى معسكر (هليو بوليس) قد تشاجروا مع الجنود الإنجليز لاعتداء هؤلاء الجنود على عفاف نسائهم ، وأنهم هربوا بعد ذلك

واعتصموا بكنيسة الأرمن فى هليو بوليس . يقال إن رشدى يقبل . إما أن يعطى للصحف تصريحاً موقعاً عليه منه يعترف فيه بأحقية مطالب الموظفين ، وإما أن يرسل برقية إلى سعد يسأله فيها هل قابل مؤتمر الصلح وفدنا ؟ ثم يذيع فى الصحف الرد الذى يتلقاه من سعد .

أرسل نجيب بك فهمى إلى مالطة .

سيخطب مكاتب نيو يورك هيرالد فى الأزهر اليوم الساعة الثامنة مساء .

٢٠ أبريل ١٩١٩

هذا اليوم هو عيد الفصح عند المسيحيين . ذهب وفد من الموظفين والطلبة والمحامين والقضاة إلخ . إلى بطريركيات الروم الكاثوليك والأرمن الأرثوذكس والأقباط والموارنة والآباء اليسوعيين لتبادل التهنئات بالعيد . وكان الزحام بالغاً أشده عند بطريركية الموارنة حيث وافى هؤلاء المهنئين مندوبون من الأزهر ، فبلغ عدد الجميع زهاء ألف نسمة ، وألقيت فى هذا الجمع الحاشد الخطب والقصائد من حلمى عيسى وخليل مطران وغيرهما .

حالة المدينة هادئة ولم تقع حوادث .

٢١ إبريل ١٩١٩

يوم شم النسيم هدوء شامل .

تقابلت مع لملوم بك السعدى فى مكتب عزيز بحرى فأكد لى أنه وطنى صميم ومن طلاب الاستقلال لبلاده وأنه قد توجه إلى مديرية البحيرة لدعـــوة العشائر العربية هناك إلى الكف عن أعمال التخريب . وأضاف أنه قدم احتجاجاً إلى

اللورد اللنبى بأن الطيارين قد ألقوا قنـــابلهم على قرية أبى المطامير وقرية أخرى مجاورة لها فقتل عشرون شخصاً وذلك على أثر تبليغ أحد الخفراء بأنه يوجد فى هاتين القريتين بدو مسلحون ، وظهر فيما بعد أن هذا التبليغ كاذب .

قدم مبروك باشا فهمى إلى اللورد اللنبى شكوى بأن الجنود البريطانيين أعتدوا عليه بالضرب وسلبوه ما معه ، فـكلف اللورد ضابطين بريطانيين بتحقيق هذا الحادث .

حدث أيضا أن كامل أفندى منصور وهو موظف فى شركة السكر فى الحوامدية قد هاجمه ليلا فى غرفة نومه جنديان بريطانيان طلبا إليه نقوداً ثم ضرباه بجمع يديهما المغطاتين بالحديد فأحدثا به جرحاً فى جبهته وكدمات جمة فى جسمه ثم خف اليه عند استصراخه جنود بريطانيون آخرون لإنقاذه وقال كامل أفندى (إن الجنود البريطانيين فى هذه الجهة يبيعون السكر والفانلات والساعات التى يسرقونها بأثمان بخسة جدا) .

أشيع أن حمدى سيف النصر مدير الجيزة أبى أن يسترد استقالته التى كان قد قدمها بسبب الفظائع التى ارتكبها الجنود الإنجليز ، ومن تلك الفظائع أنهم أرادوا الاعتداء على عفاف أمرأة فرفعت طفلها الصغير بين ذراعيها استرحاماً لهم فأردوه قتيلا بطلقة من مسدس ...

قدمت الوزارة الرشدية استقالتها إلى عظمة السلطان فى الساعة الحـــادية عشرة مساء . واجتمع صباحاً عشرة من مندوبى الموظفين وقرروا عودة الموظفين إلى العمل فى صبيحة اليوم الثالث والعشرين من هذا الشهر وذلك على أثر علمهم بالأمر العسكرى الذى أصدره اللورد اللنبى فى اليوم الثانى والعشرين من ابريل وقد أذيع فى الساعة الرابعة بعد الظهر من غير أن تخطر الوزارة به .

ونثبت هنا نص القرار الذى قررته لجنة مندوبى الموظفين فى وزارات الحـكومة ومصالحها .

قرار

من لجنة مندوبى موظفى وزارات الحكومة ومصالحها

اجتمعت لجنة مندوبى موظفى وزارات الحكومة ومصالحها فى وزارة الداخلية الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة ٢٥ ابريل سنة ١٩١٩ و بعد الاطلاع على محضر الاجتماع الذى عقده عشرة من أعضاء اللجنة بصفة مستعجلة فى الساعة ١١ والدقيقة ٥٠ من مساء يوم الاثنين ٢١ ابريل الحاضر عقب استقالة الوزارة الرشدية ، الذى رأوا فيه دعوة الموظفين إلى العودة إلى أعمالهم ، و بما أن هذه الدعوة لم يتيسر لعدد من الموظفين العلم بها ، كما أنهم لم يتيسر لهم التحقق من الاستقالة التى كانت دون سواها السبب فى الدعوة إلى العودة ، لا سيما وأن قبول الاستقالة لم ينشر إلا بعد ظهر الأربعاء ٢٣ ابريل الحاضر ، و بما أنه قد ترتب على كل ذلك تخلف الكثيرين من هؤلاء الموظفين عن العودة إلى أعمالهم ولا يزال بعضهم متخلفا ، و بما أن الطلبات التى طلبها الموظفون تأييداً للقضية الوطنية وأضربوا من أجلها إضرابا عاما وأقرتهم عليها الأمة ممثلة بجميع طبقاتها إقرارا تاما إنما طلبت من الوزارة الرشدية فلما لم تستطع تلك الوزارة إجابتها بعد أن سلمت بصحتها استقالت . و بما أن الاستقالة فى هذه الحالة هى فى حكم الإجابة ، فلذلك قررت اللجنة بالإجماع ما يأتى :

أولا : إقرار الدعوة التى صدرت من الأعضاء العشرة المشار إليهم بالعودة إلى العمل واعتبارها قرارا صادراً من اللجنة بأجمعها .

ثانيا : الاحتجاج الشديد على ما يدا من عدد من الموظفين الانجليز فى بعض المصالح من الاضطهاد وسوء المعاملة لبعض الموظفين المصريين الذين عادوا إلى أعمالهم وتذكير هؤلاء الموظفين الانجليز بأنهم رغم جنسيتهم موظفون فى الحكومة المصرية

فلا يسوغ لهم استخدام مراكزهم الرئيسية للانتقام من الموظفين المصريين الذين أقرت الحكومة المشار إليها رسميا بأن إضرابهم كان لتأييد المطالب القومية

ثالثا : توجيه النظر إلى ضرورة الإفراج عن الموظفين الذين اعتقلوا و إعادة الذين منعوا عن أعمالهم إلى وظائفهم

فليحيي الوطن وليحيي الاستقلال التام . التوقيعات :

محمد عاطف بركات ناظر مدرسة القضاء الشرعي . محمد زكى الأبراشى وكيل نيابة الاستئناف . على ماهر مدير إدارة المجالس الحسبية . صادق حنين مدير الإدارة والإحصاء بالزراعة . محمود زكى مفتش بإدارة الأمن العام بالداخلية . محمود سامى سكرتير عام وزارة الأشغال . محمد حلمى عيسى مدير الإدارة القضائية بوزارة الداخلية محمد عبد الهادى الجندى قاض . عبد العظيم راشد وكيل نيابة محكمة مصر المختلطة . أحمد شرف الدين وكيل إدارة المحاكم الشرعية . سلامه ميخائيل قاض . حسن نشأت مدرس بمدرسة الحقوق محمد لبيب عطيه سكرتير عام النيابة العمومية . محمود حسن مفتش بإدارة الأمن العام بالداخلية . أحمد صادق وكيل قسم الإدارة بوزارة الداخلية . محمد شكرى طلحه إدارة الأمن العام بالداخلية . محمد قطبي وكيل مصلحة السجون . أمين فريد رئيس إدارة بمصلحة السجون . إبراهيم دسوقى أباظه مأمور ضبط مديرية الجيزة . محمود عباسى وكيل إدارة بوزارة الحربية . عبد الباقى صالح وكيل إدارة بوزارة الحربية . أحمد حسن بوزارة الحربية . محمود حسيب وكيل إدارة قسم قضايا المالية . عطيه حجاج رئيس قلم التحصيلات بالمالية . فؤاد برسوم رئيس قلم نزع الملكية . مصطفى شوقى بالمطبعة الأميرية . نجيب اسكندر دكتور بمصلحة الصحة . برسوم روفائيل بالبوسته . محمد فهمى بالبوسته . أحمد مختار نجيب مندوب قلم قضايا الأشغال عبد العزيز فريد باشمهندس بهندسة السكة الحديدية . أحمد فهمى وكيل إدارة بالأشغال . مصطفى منير سكرتير تنظيم مصر . وهبه مينا باشكاتب المباني بوزارة الأشغال . إبراهيم رمزى مترجم فني بوزارة الزراعة . على زيتون قومندان مدرسة البوليس .

أبو الفتح الفقى وكيل قلم الترجمة بإدارة التعليم الفنى . مصطفى سعيد رئيس المراجعة بإدارة الخزينة . إسماعيل نيازي وكيل إدارة بوزارة الخارجية . بدرخان على وكيل مديرية الجيزة

يوم ٢٢ أبريل سنة ١٩١٩

نشرت الجريدة الرسمية الأمر العسكرى الذى أصدره اللورد اللنبى ، وقد علق هذا الأمر فى جميع الطرقات بثلاث لغات .

يزعم الموظفون أن لديهم دليلا قاطعا على خيانة بعض الوزراء ولكنهم أقسموا جهد أيمانهم ألاّ يذيعوا شيئا عن ذلك فى الوقت الحاضر ، ويظهر أنهم ينظرون إلى رشدى نظرة غير كريمة .

سيقرر المحامون العودة إلى العمل غداً .

تعرفت بوزير فرنسا المفوض فأنبأنى أن الغضب آخذ مأخذه من اللنبى الذى كان قد وطد العزم على إراقة الدماء واتخاذ وسائل الشدة . وسألنى : أعند المصريين استعداد لأن يكسبوا الحرية بالاستشهاد فى سبيلها ؟ ووصف السياسة البريطانية فى مصر بأنها غير منطقية . وقال المسيو « ديروزاس » مدير مدرسة الحقوق الفرنسية فى مصر (إن نفرا من الانجليز سليمى التفكير ينتقدون سياسة حكومتهم فى مصر) فأجابه الوزير المفوض أنه لا يظن أن عددهم كثير

أخبرنى حسن بك نشأت أن الانجليز سيغتنمون فرصة اجتماع مندوبى الموظفين لإلقاء القبض على عدد منهم ، ويتوقعون أن ينجم عن ذلك مظاهرات سلمية يقمعها الانجليز بوسائل وحشية وبإراقة الدماء . وقد نمى إلى الوظفين أن بعضا من الأسر البريطانية المقيمة فى الأحياء الوطنية قد نقلت إلى جهات أخرى . ومهما يكن من شىء فان الانجليز لن يغلبونا على أمرنا لغباوتهم .

هتف الموظفون فى الساعة السابعة مساء عند جروبى صائحين «ليحيى الإضراب» وقاموا بتوزيع منشورات جاء فيها (أن مندوبيهم لم يقرروا العدول عن الإضراب) فدعوتهم أنا وحلمى عيسى بك إلى مراجعة أنفسهم والعودة إلى مباشرة العمل.

قبل عظمة السلطان استقالة الوزارة فى الساعة السابعة مساء بعد أن وافق عليها الانجليز ...!

٢٣ أبريل سنة ١٩١٩

عاد أغلب الموظفين إلى عملهم ووقعوا على سجلات حضورهم، إلاّ أن عدداً لا يستهان به قد انصرف بعد التوقيع.

إن نجيب بك فهمى الذى لم ينقل إلى مالطه وكان مايزال فى القنطرة قد أطلق سراحه وعاد إلى عمله فى السكة الحديدية كما جاء فى جريدة «الأهرام».

نشرت الجرائد كتابا من ممثل الولايات المتحدة في مصر ضمنه اعتراف حكومته بالحماية. وقد أحدث أثرا سيئا فى المدينة.

أصدر الجنرال (بلفن) أمرا عسكريا يحظر فيه جمع الاكتتابات. أخبرنى حسن نشأت أنه جاء ذكرى فى اجتماع ممثلى الموظفين الذين رشحونى لوزارة المالية!!

٢٤ أبريل ١٩١٩

عاد الموظفون ولكن الجماهير رشقتهم بالحجارة وقذفتهم بعبارات السباب فأجفل عدد كبير منهم وقفلوا إلى بيوتهم راجعين.

ألقى القبض على «على بك عمر» وعلى ثمانية آخرين من موظفي وزارة المعارف العمومية بتهمة أنهم حرضوا على الإضراب.

ونشرت الصحف إعلانا جاء فيه (أن الجيش سيحمى الموظفين)

علق فى نادى (ريزوتو) الإيطالى نص برقية جاء فيها ان الوفد الإيطالى فى مؤتمر الصلح بباريس قد غادرها إلى روما فى قطار مخصوص احتجاجا على تصريح ألقاه الرئيس (ولسن) .

ترك سعد باشا بطاقته لجميع مندوبى الدول فى باريس فرد معظمهم له الزيارة بترك بطاقاتهم له .

التقيت بمحمد صدقى باشا المستشار فقال لى إن الباشوات الأربعة الذين كانوا معتقلين فى مالطة قد أسيئت معاملتهم هناك . فان مكان الاعتقال كان قارس البرد ولا يوجد فى كل غرفة إلا سرير وكرسى خشبى . ولم يسمح لهم بالخروج فى الأسبوع إلا مرة واحدة فقط على أن يكونوا فرادى ، وذلك فى الساعة الثالثة مساء ، وقد منعت عنهم الزيارات . أما المنوطون بخدمتهم فقد حظر عليهم الخروج بتاتا كما أنهم لم يتلقوا خطابات من أهليهم أو ذويهم ، وإن الأمتعة التى كانت قد أرسلت اليهم منذ اليوم الأول لم يتسلموها .

يوما ٢٥ و ٢٦ أبريل ١٩١٩

لم يطلق سراح الموظفين المقبوض عليهم .

الحالة هادئة .

كف الجنود البريطانيون عن الاعتداء على الحوانيت والمقاهى ولابسى الطرابيش إلخ

أبى الموظفون أن يعينوا عدد الأيام التى انقطعوا فيها عن العمل لأن معظم سجلات الحضور قد اختفت ، وقد أجاب موظفو وزارة الداخلية مديرهم (برنت ستيوارت) أن ثمة سابقتين لإضراب الموظفين الانجليز ، فقد أضربوا مرة سبعة أيام

احتجاجاً على حادثة الحدود التي قد أحدثها الخديوي عباس . وأضربوا مرة ثانية احتجاجا منهم على تعيين وزارة فخري باشا . ومع ذلك فقد قبضوا رواتبهم كاملة ، وذلك فضلا عن أن امتناع الموظفين المصريين عن العمل إنما كان لسبب أسمى وأعظم فانه يتعلق بحرية الوطن ، وشتان بين الدافع فى الحالتين .

وزع كتيب صغير به رسوم فتوغرافية لحوادث «سفط الملوك» حيث قد ارتكبت فظائع تعجز الوصف

٢٧ و ٢٨ أبريل ١٩١٩

الحالة هادئة . لم يفرج عن المعتقلين التسعة من موظفى وزارة المعارف بل حدث ما لم يكن متوقعا فقد قبض على المحامى محمد كامل حسين بتهمة تحريضه العمال على الإضراب وقبض على برسوم افندى روفائيل من موظفى بريد القاهرة بحجة أنه أبى أن يغادر مكتبه الذى كان يريد المستر (وليم) مدير البريد أن يطرده منه . و برسوم افندى من أعضاء لجنة الموظفين ، كما قبض على القس سرجيوس ، وهؤلاء جميعا معتقلون فى القنطرة و يظهر أنه لم يفرج عن نجيب بك فهمى .

إن موظفى المعارف التسعة الآنف ذكرهم قد قبض عليهم بإيعاز من المستر (دنلوب) مستشار وزارة المعارف العمومية .

مافتىء الانجليز يقمعون الحركة الوطنية فى داخلية البلاد بطرق وحشية وجاء فى تقرير رسمى إلى وزارة الحقانية أن البريطانيين يرغمون العمد فى نواحى كفر الشيخ على أن يقدموا كل يوم ثلاثين رجلا ليجلدوا .

لا بد من الحصول على تصريح خاص للانتقال من قرية إلى أخرى فى أنحاء مديرية المنوفية .

صدر أمر فى قنا يلزم كل شخص بأن يؤدى التحية للضباط الإنجليز وقد أبى شقيق «جعفر باشا والى» أحد مفتشى وزارة الزراعة فى قنا أن يمتثل لهذا الأمر فقبض عليه وأرغم على التحية . وقدم احتجاج من محكمة قنا وموظفيها بأنهم سيعتصمون جميعهم فى منازلهم إلى أن يلغى هذا الأمر .

يقال إن اللورد اللنبى يجنح إلى اللين والمسالمة ولكنه مضغوط عليه بشدة من الموظفين البريطانيين المشبعين بروح الاستعمار .

كان اللنبى يريد أن ينشر فى الجريدة الرسمية بيانا يلفت فيه الموظفين إلى أنهم موظفون فى الحكومة المصرية فيجب أن يقلعوا عن إساءة معاملة الموظفين المصريين فقامت ضد نشر هذا البيان احتجاجات هائلة فاكتفى اللنبى بأن يذيعه بطريقة التعليمات السرية . إلا أنه بالرغم من هذه التعليمات فإن سوء المعاملة مستمر ، ومنه الغاء العلاوات التى سبق أن منحت للموظفين المصريين . وقد أحدث هذا الالغاء فى الموظفين موجة امتعاض يخشى معها أن يعودوا ثانية إلى الاضراب .

منعت الرقابة الصحفية التعليق على البرقيات التى وردت عن اضطرابات فى الهند .

٢٩ و ٣٠ ابريل ١٩١٩

عرض البريطانيون على الحسيب النسيب السيد على الميرغنى أن يقيموه سلطانا على السودان فأبى . ويقال إنهم يريدون إسناد السلطنة الى « النجومى » وهو شاب يتقن التكلم باللغة الانجليزية . وقد جاءوا به إلى مدينة الخرطوم وأسكنوه قصراً فخماً ، وأحضرت له الخيل المسومة والمتاع والأثاث .

جلد نجيب بك فهمى وهو الآن مريض فى المستشفى رقم ١٤ فى القنطرة .

حصلت اعتقالات من الأزهريين والموظفين وغيرهم .

أساليب العنف فى المنزلة متعددة . وقد حاصر البريطانيون قرية من قراها وأمروا باخراج الرجال وأرادوا بالنساء الفحشاء فهب الرجال مدافعين عنهن وتسبب عن ذلك أن صرع ستة وأربعون وجرح عدد كبير ، ونهبت القرية ، ويقال إنه سلب منها مائة وخمسون ألفا من الجنيهات .

فى المطرية من ضواحى القاهرة أبى العمدة أن يؤدى التحية إلى كريمة المستر (الكسندر برد) وهى صديقة لأحد الضباط الانجليز فما كان من هذا الأخير إلا أن أمر بحصار القرية ونهبها وسبى النساء وجلد الرجال !

فى ديرمواس وسانبو بأسيوط حدثت فظائع من هذا النوع المتقدم ذكره . فقد قبض على ثمانية من رجال القريتين انتقاما لقتل ثمانية من الضباط الانجليز فى السكة الحديدية وأمر (مكنوتن) الجنود بأن يضربوهم بأيدى البنادق حتى يموتوا .

١و٢و٣ مايو ١٩١٩

ليس فى الأفق من جديد إلاّ القاء القبض على بعض الموظفين والشيخ القاياتى ونفر من الأزهريين .

التقيت بحمدى سيف النصر فأعلمنى أن محاضر التحقيقات عن العزيزية والبدرشين تثبت ارتكاب فظائع لا يمكن وصفها ، فقد وضع الرجال فى حفرة إلى نصف قامتهم وراح الجنود الانجليز يخزونهم بسنابك الحراب حتى الموت . وسبيت النساء . واشتعلت حرائق فى وضح النهار . وإن الوقت الذى اشتعلت فيه ليقوم دليلا كافيا على كذب التقرير الانجليزى الرسمى الذى يعزو حدوثها إلى أن الرجال

قفزت على أسطحة البيوت فانقلبت مصابيح غاز الاستصباح التى بأيديهم وأحدثت تلك الحرائق .وقال لى إنه قابل اللورد اللنبى عند حضوره إلى القطر المصرى وأطلعه على هذه الفظائع فاعتذر اليه اللورد اللنبى بقيام الأحكام العرفية . الأن حمدى انتهى بإقناعه بوجوب معاقبة مرتكبى هذه الفظائع ردعا لغيرهم . بيد أنها تجددت وفى نطاق أوسع فاستقال حمدى ثلاث مرات ورفض بعد ذلك أن يقابل اللنبى أو أن يسترد استقالته .

يقال إنه سيصل إلى مصر فى الثامن عشر من مايو لجنة تحقيق وأنه صدرت تعليمات من وزارة الداخلية بزيادة عدد رجال البوليس الذين يحافظون على الأمن فى المحطات التى ستمر بها هذه اللجنة . ومن الطبيعى أن هذه الحراسة غير العادية ستثير نفوس أعضاء اللجنة ضد المصريين .

يشاع أن عظمة السلطان سيصدر عفوا عن الموظفين يمكنهم من الاستيلاء على رواتبهم المحتجزة .

٤ مايو ١٩١٩

اعتقل الدكتور اسماعيل بك صدقى زوج كريمة أحمد باشا يحي ونقـل إلى القلعة .

أشيع أن الأوربيين المقيمين فى فاقوس قد تلقوا أمراً من السلطة البريطانية العسكرية بأن يستعدوا للنزوح عن المدينة ابتداء من الخامس من شهر مايو لمدى ثلاثة أيام حاملين معهم ما يحتاجون اليه من المؤونة خلال هذه المـدة والناس فى المدينة لا يستطيعون لهذا الأمر تعليلا اللهم إلا أن تكون السلطة البريطانية قد

اعتزمت أن تقوم بأعمال وحشية ولا تريد أن تكون على مشهد من هؤلاء الأجانب القاطنين بهذه المدينة .

٥ و٦ مايو ١٩١٩

قبض على وكيل مديرية القليوبية وهو شقيق مصطفى بك الخولى ، وعلى مأمور مركز طوخ وهو حبيب حسن شقيق حافظ باشا حسن مدير الدقهلية .

ذهب وفد من علماء الأزهر إلى الجنرال (وطسن) وطلبوا إليه الافراج عن الشيخ القاياتى فقال لهم الجنرال (وطسن) ان الأزهر هو مباءة الاضطرابات والمنشورات التى تحض على الثورة . فرد عليه الشيخ محمد شاكر قائلا : إذا كان الأزهر يثير اضطرابات فان جنودكم هى السبب . فرد عليه الجنرال (وطسن) : لا يمكننى أن أستمع كلاما من هذا القبيل فى هذا الموضع الذى نحن بصدده .

تتناقل الألسنة إشاعة تشكيل وزارة برياسة اسماعيل باشا سرى .

كنت صبيحة هـــذا اليوم فى الزقازيق حيث السكينة شاملة والحالة عادية . وعلمت بحريق بلدة الشبانات الذى أشعله البريطانيون فى شهر مارس ، فلم تذر النار من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وخلفت النار خمسمائة نسمة بلا مأوى ، وقدر مجموع الخسائر بعشرين ألفاً من الجنيهات ، وذلك عـدا المنقولات والمصوغات التى احترقت أو سرقت .

يقولون إن محمد كامل حسين المحامى الذى سبق القبض عليه قد ترك ثلاثة أيام يفترش البلاط . وتداولت الألسنة أنه قد ألقى القبض على زكى محمد على المحامى وهو من أعضاء الحزب الوطنى .

لما ترامى إلى سمعى خبر تأليف وزارة إسماعيل سرى باشا نصحت للموظفين بأن يسعوا من جهتهم لتأليف وزارة عدلية على ألا يفرضوا عليهـا برنامجاً معيناً

كما فعلوا مع رشدى . وهذه الوزارة ستطلب رفع الرقابة و إجراء انتخابات حرة لجمعية تشريعية فتتصل هذه الجمعية بلجنة التحقيق عند وصولها . و إذا كان الوفد المصرى لم يصل إلى نتيجة بعد فإن للجمعية التشريعية أن تقرر تأجيل التحقيق إلى أن ينتهى الوفد من مهمته و إلا فإنه يخشى فى حالة قيام وزارة (سرية) أن يغتصب الإنجليز من بعض الأعيان ومن غيرهم قرارات ومطالب تتعارض وما توجبه المصلحة الوطنية .

حاولت إقناع صادق بك حنين وحسن نشأت بك باقتراحى هذا فقالا (إذا طلبنا وزارة عداية فالإنجليز لا يرتضونها) فأشرت عليهما بأن يقوما بمساع غير مباشرة لدى عظمة السلطان لتأليف تلك الوزارة العدلية . ولكني لم أستطع إقناعهما بما أردت ، وفضلا عن ذلك فهما لا يثقان بأفراد حاشية السلطان و بطانته ولاسيما محمود باشا شكرى .

يشاع أن قُطرى باشا مدير الشرقية قد اعتقل ولكننى كنت معه فى الزقازيق فى السادس من شهر مايو فى الساعة الحادية عشرة صباحا .

٨ مايو ١٩١٩

أفرج اليوم عن « على بك عمر » و بقية موظفى وزارة المعارف العمومية الذين كانوا قد اعتقلوا بإيعاز من المستر (دنلوب) وقد أمضوا فى المعتقل ستة عشر يوماً .

يقول «على بك عمر» إنه قبض عليه فى الساعة الخامسة صباحا ، إذ حضر إلى منزله ضابط بريطانى وآخر مصرى و بعض العساكر وأودع ثكنات قصر النيل ، ونقل فى اليوم الثانى إلى قليوب فى عربة من عربات الصليب الأحمر المحكمة الإقفال ، ومن قليوب نقل إلى القنطرة فإلى الضفة الشرقية للقنال وأدخل حجرة ضيقة فى

سقفها فتحة (زنزانة) ثم أدخل فى عربة المواشى ليذهب به ليلا إلى رفح . وكان البرد قارساً جداً . أما حين نقل من قليوب إلى القنطرة فكان فى عربة من عربات السكة الحديدية المخصصة للدرجة الثانية وكان فى حراسة عساكر هنود من «البوركا» الذين كانوا لا يفارقونه حتى إذا ذهب إلى دورة المياه فيدخلونها معه . أما فى رفح فكان المعسكر محاطا بالأسلاك الشائكة . وكان المعتقلون فى خيام يحرسها ضباط اسكتلنديون صدرت إليهم تعليمات بأنه إذا اقترب أحد المعتقلين على مسافة ياردة واحدة من الأسلاك الشائكة أو تحادث مع شخص فى الخارج يرمى بالرصاص فوراً . وقال لهم الضابط : إننى أرى أن عددكم ثمانية فقط وكنت أحطت علماً بأن أعد محالا لواحد وستين شخصاً وقد اعددت فعلا محالا لواحد وسبعين شخصا . وعامل الضابط المعتقلين بالحسنى ووضع تحت إمرة كل منهم أسيراً تركياً قائلا (لك أن تفعل فيه ما تشاء إلا أن تقتله) . ولم يأخذ المعتقلون معهم ملابسهم حين غادروا القاهرة ، ولما أطلق سراحهم نقلوا من رفح إلى القنطرة فى الدرجة الثالثة ومنها إلى القاهرة فى الدرجة الأولى . ولم يستجوبهم أحد واستمروا لا يعلمون ما هى التهمة التى احتجزوا من أجلها ، ثم عادوا إلى عملهم فى الوزارة .

نقل القس سرجيوس وعمدة من عمد الشرقية وآخرون إلى رفح وليس هناك من أخبار مؤكدة عن نجيب بك فهمى الذى لم يبرح محل اعتقاله بعد

ابتداء من الحادى عشر من شهر مايو أصبح السفر بالسكك الحديدية مباحاً من غير تصريح إلى مناطق الوجه البحرى ما عدا منطقة القنال . ولكن لا تزال هناك عشر محطات مقفلة من بينها محطات ههيا وقويسنا وأبو الشقوق وقها وقليوب إلخ .

ألصق إعلان فى الأماكن البارزة بأنه إذا وقع اعتداء على نقطة ما من السكة الحديدية فإن جميع المحطات المجاورة لها ستقفل ويستأنف نظام التصاريح من جديد .

هناك مظاهرات ليلية تقابل من الجنود البريطانيين بضرب العصى . وقد صدر بلاغ جاء فيه انه قتل واحد من المتظاهرين وجرح كثيرون .

١٠ مايو ١٩١٩

سافر اللنبى إلى فلسطين وحلب ، والحالة هادئة .

الطلبة متابعون توزيع المنشورات المملوءة بالطعن فى مديرى مديريتى المنيـــا والقليوبية وفى مستشارى محكمة الاستئناف الوطنية الخ الخ وتوزع تلك المنشورات عند جروبى ونحن ننشر هنا بعض فقرات من المنشور رقم ٢٤ الذى عنوانه (المستشارون المصريون) ضمن ما كان يوزع من منشورات لندلل بهذه المقتطفات على الروح الحماسية الثائرة التى كانت تشتعل فى نفوس المصريين آنئذ :

(الأمة المصرية الأسيفة نائحة تبكى انشقاق الكبار من أولادها . الكبار الذين رأوا منها ومن خيرها ما لم يره الصغار . أولئك الكبار الذين لم ينصروها و يثبتوا أقدام الوطنيين من أهليها حتى لا يكون «للجنرال اللنبى» ولا للانجليز حجة من أن الكبار من المصريين لم يضربوا ، وأنهم وفوا أجورهم ومهاياهم عن أيام الإضراب وأنهم على الوطن خارجون ، فليقل لنا المستشارون هل قبلوا الماهية كاملة مرغمين أو قبلوا ذلك مختارين ؟ وهل لم يتبين لهم صدق قولنا من أن الانجليز يريدون أن يتذرعوا بكشوف المهايا «للجنة التحقيق مثلا» من أن أكبر الرؤوس فى هذا البلد لم تضرب) .

المدارس ما زالت مغلقة لأن اللنبى كان قد أعلن أنه إذا لم يستأنف التلاميذ دراستهم فى السابع من مايو فستبقى المدارس مقفلة إلى العام الدراسى المقبل .

١١ مايو ١٩١٩

فى الساعة السابعة مساء قام الضباط البريطانيون بتفتيش جميع الموجودين فى

محل جروبى وقد هم بالانصراف المسيو (ليبيه) قنصل فرنسا بالقاهرة بعد أن أوضح للضابط شخصيته ومع ذلك أمروه بألاّ يبرح محله . فلماعصى الأمر شهر أحد الضباط عليه مسدسه وعلى مسافة عشرة سنتيمتر من وجهه . غير أن أحد رجال البوليس السرى المصرى قد عرف ذلك القنصل فسهل له سبيل الخروج من غير تفتيش .

وقد أرسل القنصل احتجاجا صارخا إلى قائد القوات البريطانية فى القطر المصرى . والقنصل هو الذى قص علىّ هذا الحادث وكاد ينفجر من الغيظ .

أما فى محل جروبى فقد سارع الخدم النوبيون بإخفاء جميع المنشورات التى كان الطلبة يوزعونها فلم يجد الضباط الانجليز لها أثرا ما .

١٢ مايو ١٩١٩

أذاع الجنرال (وطسن) أمراً بأنه إذا اجتمع أكثر من خمسة أشخاص فى مقهى أو مسرح أو محل عام آخر وتكلموا فى السياسة فيجب إلقاء القبض عليهم . وأمر الجنرال (وطسن) باقفال المحال جميعها عند حلول الساعة السادسة بعد الظهر وقد أمر باقفالها مرتين فى اليوم

١٥ مايو ١٩١٩

أفرج عن نجيب بك فهمى .

تمرد العساكر الانجليز فى ثكنة قصر النيل وأضرب عن العمل سائقو السيارات واللوريات البريطانية . والحالة فى العاصمة والبلاد هادئة .

زرت عدلى باشا فى منزله وهو يرى أن يعود الوفد لتوحيد القوى والعزائم وأن تشكل وزارة يرى أنها من ألزم الضروريات فى الوقت الحاضر

قلت له (إنك متمتع بثقة الموظفين وثقة البلد أيضا) فأجاب بأنه على استعداد لتشكيل وزارة إذا طلب إليه ذلك . وهو لا يرى من المستحسن أن يبقى الموظفون مضربين بعد الأيام الثلاثة الأولى ويخشى من أن لجنة التحقيق إذا ما وصلت إلى هنا فانها لا تجد من تتكلم معه ، فتقدم تقريرها على أساس من أقوال المناصرين لهم ثم تحمل برلمان بريطانيا على إقراره . قلت له (يزعمون أن رشدى باشا صرح بأنه على استعداد للعودة إلى تشكيل الوزارة إذا ما أصبحت الحماية على البلاد نهائية) فأسف عدلى لهذا الكلام الذى يستحيل أن يكون رشدى قد فاه به ، وهو لا يشك فى أن رشدى رجل شريف ، ومن المستحيل أيضا أن يكون قد قبض خمسة وعشرين ألفا من الجنيهات كما يذاع عنه . وهذه ترهات حقيرة جديرة بالازدراء . وأقول — أنا الذى عرفت رشدى معرفة تامة قاضيا وسياسيا — إنه أشرف وأنزه من عرفت من رجالنا الرسميين .

وأن عدلى ليستبعد أن عظمة السلطان يستطيع فى الظروف الحالية أن يقترح وزارة على الانجليز . أما هو أى عدلى فان علاقته باللورد اللنبى ليست سيئة بل هى طيبة وأنه لم يخاطب اللورد اللنبى بشدة إلا حين أراد اللورد أن يتخذ إجراءات ضد الموظفين حين كان عدلى عضوا فى الوزارة الأخيرة ، وأفهمه أن مثل هذا التصرف يسلب الوزراء المصريين كل كرامة فأقره اللورد على رأيه .وحينما استعصى على الوزارة إقناع الموظفين بالعودة إلى عملهم استقال عدلى وحينئذ فقط أصدر اللورد اللنبى أمره العسكرى المعروف . واختتم عدلى كلامه معى بأن البريطانيين يضايقهم جداً أن يضبط الأشخاص الذين قتلوا الضباط الانجليز لأنهم إذا عرفوا وقبض عليهم فان البريطانيين يعدمون بذلك كل حجة يتعللون بها فى استعمال القمع والشدة مع المصريين

(وإلى هنا انتهت هذه اليوميات إذ أننى بعد هذا برحت القطر إلى باريس لألحق الوفد هناك . ولقد اثبتها هنا كما دونتها فى حينها من غير أن أدخل عليها أىّ تعديل) .

الباب الرابع

تصرّفات حكوميّة

بعض الشواهد

ليس حادث إقصائي عن المجلس الاقتصادى الذى سبق ذكره فى الباب الثانى فريداً فى بابه بل له نظائر عدة ذلك لأن رجال الحكومة يعتقدون أن تعيين أهل الذكر من أفراد الشعب فى مختلف لجانها — وما أكثر عددها وأقل إنتاجها — هو تشريف لا تكليف . يؤكد ذلك عندهم مايبذل من وساطات والتماسات للدخول فيها. فترى بعض المجالس الاستشارية تتألف من خمسين لا بل ستين عضوا ، ومن فضل الله أن معظم من يفوزون بالتعيين بعد أن تحفى أقدامهم يتخلفون عن حضور الجلسات ولولا ذلك لكان من المستحيل أن يناقش أى موضوع مناقشة مثمرة .

ينجم عن هذه العقلية الغريبة أن بعض الوزراء يغتنمون فرصة تجديد المجالس واللجان الاستشارية لإبعاد من لا يحبون أن يبقى فى عضويتها لاعتبارات شخصية أو حزبية وهم كذلك قد يغفلون دعوتها للانعقاد بدافع من أهوائهم لا لعدم وجود عمل لها .

أما المعاملة التى يعامل بها الأعضاء فتتأثر طبقا لتلك العقلية فينالهم أحياناً ما لا ينال الموظف من االامتهان والهوان ، ويطول بى الشرح لو أردت إيراد أمثلة على ماتقدم بيد أننى أذكر بعضها وهى خاصة بى على سبيل التفكهة .

ألغى دولة اسماعيل صدقى باشا الدستور فاحتجت جميع الهيئات على هذا الاجراء ولم يسع « النقابة الزراعية المصرية العامة » التى أناسكرتيرها العام إلا أن تحذو حذو الهيئات الأخرى ، فغضب دولته وأمر بقطع الاعانة السنوية التى كانت الحكومة تدفعها للنقابة وقدرها ألف جنيه .. ولم يكفه ذلك بل أراد إخراجي من اللجان التى أعمل فيها ممثلا للنقابة فسارع وزير الزراعة (وكان وقتئذ حافظ حسن باشا) إلى إبعادى من المجلس الاستشارى للزراعة الذى لبثت أعمل فيه منذ نشأته وعنى بأن يعطى لهذا الابعاد شكلا بارزاً فنشر فى الجرائد أن المجلس الاستشارى الزراعى تجدد

بكامل أعضائه ماعدا يوسف نحاس بك ، ثم طلب معاليه من سكرتير لجنة القطن الدولية التى عينت فيها أيضا منذ تأسيسها بصفة مستديمة الملف الخاص بهذه اللجنة ليرى كيف يستطيع إخراجى منها وكنا على أهبة السفر إلى الخارج لحضور أحد اجتماعات لجنة القطن الدولية فى مدينة وندرمير بانجلترا . تنبه السكرتير إلى غرض الوزير من طلب الملف وفاتح فى الأمر أحمد عبد الوهاب باشا وكيل وزارة المالية فى ذلك الحين ورئيس لجنة القطن الدولية فاتصل بحافظ باشا وقال له إنه و باقى الأعضاء لا يستطيعون العمل إذا حدث أى تعديل فى تشكيل هذه اللجنة ، فامتنع الوزير عن التعديل ولم يخبرنى المرحوم أحمد عبد الوهاب بكل ذلك إلا حين كنا فى أوربا وقد ضحكنا كثيرا من هذه الصبيانيات !

رضى عنى صدقى باشا بعد ذلك فعدت بقدرة قادر أو بسحر ساحر الرجل الذى يؤدى لبلاده خدمات نافعة ونفحنى دولته بالكتاب التالى :

حضرة صاحب العزة يوسف نحاس بك

بمناسبة إصدار لائحة بورصة ميناء البصل أتشرف بأن أقدم لعزتكم خالص الشكر على المعونة الصادقة التى قدمتموها أثناء اشتراككم فى أعمال اللجنة التى وكل إليها تعديل نظام هذه البورصة .

وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام ؟

وزير المالية

فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٣١

الإمضاء

إسماعيل صدقى

ثم أعادونى إلى المجلس الاستشارى الزراعى وما زلت أعمل فيه ما يقدرنى الله على عمله إلى أن مرضت عام ١٩٤٩ مرضاً اضطرنى إلى اعتزال كل الأعمال الحكومية التى كنت مضطلعاً بها قرابة نصف قرن .

قبل ذلك وفى مارس سنة ١٩٢٥ كنت قد استقلت من المجلس الاستشارى

الزراعى لسبب متعلق بالكرامة أيضا ولكن وزير الزراعة أبى قبول الاستقالة بكتابه الذى أورد نصه هنا إشادة بكرم أخلاقه .

حضرة صاحب العزة يوسف نحاس بك

تشرفت بكتاب عزتكم المؤرخ فى مارس سنة ١٩٢٥ الخاص بطلب استقالتكم من عضوية المجلس الاستشارى للزراعة على أن الوزارة ترى أن خبرتكم ودرايتكم بمهام المشروعات الزراعية لمن أدعى الأسباب التى تدعو للتمسك ببقائكم فى هذه الخدمة العامة التى تتطلبها مصلحة الوطن الذى يحتاج فى هذه الظروف إلى خدمة أبنائه العاملين ومع وثوق بتقديركم لهذه الغاية الشريفة أتعشم ألا تضنوا بخدماتكم الجليلة النافعة للبلاد فى أمورها الزراعية .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .　　　　وزير الزراعة

فى ٥ أبريل سنة ١٩٢٥　　　　الإمضاء

كذلك أبعدت من لجنة السودان الحكومية ثم أعدت إليها فى سنة ١٩٤٤ . وللجنة السودان حكاية خليقة بأن أسجلها هنا لغرابتها ومجاوزتها حدود اللياقة .

كان المغفور له الأمير عمر طوسون يعنى عناية خاصة بكل ما يتعلق بالسودان ويهتم بتوثيق علاقته بمصر فأوعز بتشكيل لجنة أهلية قوامها ممثلو الغرفتين التجاريتين بالقاهرة والإسكندرية وعدد من أعضاء الجمعية الزراعية الملكية والنقابة الزراعية المصرية العامة وجمعية خريجى مدارس الزراعة وكبار التجار والزراع والأعيان أطلق عليها اسم (اللجنة المستديمة للسودان) .

جدت هذه اللجنة فيما أخذت نفسها به . ومنذ عام ١٩٣٥ سافرت ثلاث مرات للسودان فكان من عملها الجليل ماحمل الحكومة على الاعتراف بها كهيئة حكومية ، بقرار من مجلس الوزراء صدر فى ٢٤ يناير سنة ١٩٣٨ وضعت بموجبه تحت إشراف وزارة التجارة والصناعة وفتح لها اعتماد قدره مبلغ ألفى جنيه سنويا . رأت هذه

اللجنة الحكومية أن تتأثر خطوات لجنة السودان المستديمة الأهلية فقررت السفر إلى السودان فى الأسبوع الأول من فبراير سنة ١٩٣٩ بموافقة وزارة التجارة والصناعة. إلاَّ أنها بعد أن أعدت عدتها للسفر وحجزت الأمكنة فى الباخرة والسكة الحديدية وأخبرت حكومة السودان رسميا بموعد زيارتها ووضع البرنامج للمدة التى ستقضيها فى ربوع السودان، وكل ذلك فى حدود اختصاصها، فوجئت قبيل الرحيل بأيام قلائل بقرار من وزارة المالية يتعارض وما اعتزمته هذه اللجنة، من غير أن يعرف له سبب معقول يبرره فذهل الأعضاء وقدموا فى السابع من فبراير، سنة ١٩٣٩ استقالة مسببة لوزارة التجارة والصناعة ذيلت بالتوقيعات الآتية:

فؤاد أباظه. عبد الحميد فتحى، الفونس جريس، يوسف نحاس، مصطفى نصرت، عبد الحميد أباظه، عبد المجيد الرمالى، محمود الجمال، إبراهيم عامر، على يحيى، على شكرى خميس، عطا عفيفى. وامتنع الأعضاء الموظفون عن التوقيع طبعاً.

بذلت مساع متواصلة لحملنا على العدول عن الاستقالة وقدمت لنا معاذير ما أنزل الله بها من سلطان إلاَّ أننا قبلناها. وأما السبب الحقيقى فلا يمت بصلة للمصلحة العامة وإنى لأخجل من ذكره.

فى جميع هذه التصرفات ما يشعر القارىء بأن الحكومة لا ترى أيَّ غضاضة عليها فى أن تقصى عن لجانها ثم تعيد إليها غير عابئة بكرامة الذين تدعوهم لمعاونتها فى شئون جسام تجد من المصلحة أن تستعين برجال العلم والعمل لتمحيص الرأى فيها.

أما عدم تقدير ما يؤديه أعضاء اللجان أو بالأحرى عدم إبداء ما يفهم منه أن لعملهم تقديراً عند أولياء الأمر فأبرز ما يدل عليه أنه إذا ما انتهت اللجنة من إتمام ما عهد إليها به فلا يتلقى أعضاؤها فى أغلب الأحيان مكافأة أو رتبة أو وساما أو ما إلى ذلك حتى ولا كلمة شكر.

سافرت البعثة الاقتصادية إلى انجلترا عام ١٩٣٥ برياسة الدكتور حافظ عفيفى باشا وعضوية طلعت حرب باشا، صادق حنين باشا، محمد فرغلى بك، وأنا. ومعنا

نخبة من الإخصائيين والسكرتاريين اذكر منهم حضرات حسين بك فهمى ويوسف بك ميلاد والمرحوم احمد بك سليم وعلى محمد على علوبة وأدت مهمتها بما أشادت به الصحف البريطانية إشادة بالغة فى التقدير حتى إنهاوصفت تقرير البعثة بأن اللجان التى يدعونها فى أنجلترا Select Commission سيلكت كوميسن (اللجان المختارة الممتازة) لا تقدر على الإتيان بأحسن منه . (يجد القارىء هذا التقرير منشوراً فى المجلد الذى طبع عن جهود النقابة الزراعية المصرية العامة فى ثلاثين عاما) .

عدنا إلى مصر وقدمنا ذلك التقرير إلى الحكومة وانتظرنا أسابيع فلم يرد منها حتى ما يشعر بتسلمه . تضايقنا من هذا الاستخفاف وذهبت إلى المغفور له توفيق نسيم باشا رئيس مجلس الوزراء ، وكانت الكلفةمرفوعة بيننا ، فسألته عما إذا كان تقريرنا قد وصل فقال : إنه تقرير عظيم حقا و إنى آسف كل الأسف لأن رئيس مكتبى لم يلفتنى إلى كتابة الشكر الواجب لكم فأرجو يايوسف بك أن تتصل به وتضعا معا كتاب الشكر وقد كان .. وكتبت مع مدير المكتب شكرى وشكر زملائى ثم تسلمته بتوقيع الرئيس بعد مضى أيام ، فتأمل .

للمرء أن يتساءل عن علة المعاملة التى يعامل بها رجال الحكومة المحكومين عندنا حتى الفخبة المختارة منهم ولا أظنها مألوفة عند غيرنا .العلة فى رأيى هى أن الموظفين ،وهم فئة متعلمة فى أمة جل أفرادها أميون ، يعدون أنفسهمأرفع منهم قدرا فلا غرو أن يصطنعوا معهم الغطرسة والشموخ وقد ورثوهما من الانكليز وقبلهم من الأتراك أيام كانوا يحكمون البلاد . ولا علاج لهذا العيب إلا أن ينتشر نور العلم فى طبقات الشعب فيرافقه طبعا الشعور بالعزة والاعتداد بالكرامة .

* * *

ولما كان الشىء بالشىء يذكر فانى شهدت فى السودان عكس ما نجده فى مصر . فالموظفون هناك جد حريصين على كرامة الجمهور واحترامه بقدر ماهم محافظون على كرامتهم هم أنفسهم فلا يسمحون لرئيس مهما علا أن يمتهنهم .

أبديت إعجابى من هذه الظاهرة إلى حضرة مدير مصلحة البريد بالخرطوم فى أول رحلة للبعثه عام ١٩٣٥ لما تأثرت به من الأدب الرائع الذى يتحلى به موظفو البريد هناك فى معاملة كل فرد من الأفراد كبيرا كان أو صغيرا فأجابنى إننا نتشدد فى ذلك كل التشدد وقد حوكم أمس أحد موظفينا أمام مجلس التأديب بتهمة أنه كان أمامه أناس كثيرون يقوم بخدمتهم فخاطبه خادم واقف فى آخر الصف محتجا على طول انتظاره فرد عليه الموظف (ألم ترأنى أعمل بلا توقف . انتظــر دورك) وقد حكم عليه باستقطاع أيام من راتبه . قلت : وهل فى جوابه ما يستوجب هذا العقاب ؟ قال : نعم . لأنه كان يجب عليه أن يكون أكثر تأدبا فى الرد .

وأما عن اعتداد الموظفين السودانيين بكرامتهم فقد علمنا ونحن فى السودان سنة ١٩٣٥ أنه وقع اعتداء على أحد الضباط السودانيين من رئيسه البريطانى وكان ملـكيا فقابله الضابط بضرب مبرح بالـكرباج وما زال به حتى اختبأ فى مكتبه ، ولما أحيل الضابط إلى المحاكمة برأته المحكمة العسكرية لأنه ، وهو يلبس الـكسوة العسكرية ، لا يجوز له أن يصبر على إهانة علنية فلا يدفع عن نفسه .

* * *

السودانى من جميع الطبقات يذود عن كرامته ويأبى الإهانة وقامت لدى على ذلك براهين عدة أذكر منها أنه لما همت البعثة الأولى للسودان عام ١٩٣٥ بمبارحة فندق (جراند أوتيل) عائدة إلى مصر أخذ فراشو الفندق فى حمل أمتعتنا للعربات المعدة لنقلها إلى محطة السكة الحديدية . فلاحظ أحدنا أن أولئك الفراشين يتباطؤون بعض الشىء فى عملهم وطلب إلى مدير الفندق أن ينتهرهم فأجابه : لو فعلت لتركوا الأمتعة فى محلها وانصرفوا . ثم خاطبهم بالحسنى فأنجزوا عملهم بسرعة مضاعفة .

وفى آخر مرة زرت فيها السودان روى لى صديق مقيم فى الخرطوم الحادث المروع التالى . كان يجاور منزله صيدلى سورى شاب قوى البنية حاد الطبع وكثيرا ما حذره من عواقب شراسته التى لا يطيق السودانيون عليها صبرا وكان آخر تحذير

فى صبيحة اليوم الذى وقع فيه الحادث . فقد أراد أحدهم شراء عقار من العقاقير ولكنه رفض الشراء بالثمن الذى طلبه الصيدلى منه . فتفوه بكلمات بذيئة ضد السودانيين سمعها شيخ جاوز الستين فقال للصيدلى : اشتم عميلك كما تشاء ولكن مالك والسودانيين ؟ فرد عليه متهوراً : أنتم جميعا نساء وجبناء . فما إن قال ذلك حتى بادره الشيخ بطعنة مدية أردته قتيلا وحكم على القاتل بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات .

وفى الحرب الأخيرة التزم العسكريون البريطانيون فى السودان حسن السيرة على عكس سلوكهم فى مصر وندر أن يعتدوا على الأهلين فان فعل أحدهم لقى الجزاء الحق .

مر فى إحدى القرى ثلاثة جنود بريطانيين أمام حفلة عرس مقامة فى أم درمان فأرادوا أن يدخلوا الدار ليشهدوها فمنعهم صاحبها لأن التقاليد لا تسمح بأن يندس الغرباء فى هذه الحفلات المرحة التى يختلط فيها الجنسان من أهل العروسين ، ووعدهم بأن يقيم لهم فى الليلة التالية حفلة بهيجة يحضرونها إذا شاءوا . فأبوا وأصروا على اقتحام الدار فقاومهم من فيها وقتلوهم . ثم ذهب رب البيت إلى المدير ليخبره بما كان فتسلمت الحكومة الجثث ولم تجر تحقيقا فى الحادث ولا محاكمة .

كذلك دخل ليلا جندى ثمل أحد المنازل كان يعرف فيه سيدة ظن أنها تقطنه وحدها فلما أراد أن يعتدى على عفافها استصرخت أخاها وكان نائما فى غرفة مجاورة فانهال على رأس الجندى بهراوته فأرداه قتيلا . (وكفت الحكومة أيضا على هذا الحادث ماجور)

فاكرام الضيف والاعتداد بالكرامة صفتان يمتاز بهما بنوع خاص إخواننا السودانيون . حياهم الله وبياهم !

محتويات الكتاب

مؤلفات الدكتور يوسف نحاس

١ — الفلاح (حالته الاقتصادية والاجتماعية)

٢ — مصر وزارعة الدخان

٣ — للذكرى (حالتنا المالية والاقتصادية عام ١٩١١ — ١٩٤٣)

٤ — القطن المصرى (برنامج سديد لاستغلال الأرض الزراعية) تأليف المسيو ص . أفيكدور وترجمة الدكتور يوسف نحاس سنة ١٩٣٣

٥ — العيد الخمسينى للمحاكم الأهلية (ترجمة خطبتى المغفور له عبد العزيز فهمى باشا والمغفور له محمد لبيب عطية باشا إلى اللغة الفرنسية بقلم الدكتور يوسف نحاس سنة ١٩٣٣)

٦ — كتاب « الأحوال الزراعية فى القطر المصرى أثناء حملة نابليون بونابرت » بقلم المسيو ب . س . جيرار وترجمة الدكتور يوسف نحاس وخليل مطران سنة ١٩٤٢ .

٧ — تقرير عن حالة السودان الاقتصادية والاجتماعية مارس سنة ١٩٤٥ .

٨ — صفحة من تاريخ مصر السياسى الحديث (مفاوضات « عدلى — كرزن » بقلم الدكتور يوسف نحاس سنة ١٩٥١) .

٩ — مجلة الرابطة الفرنسية . كلمة الدكتور يوسف نحاس فى تأبين المغفور له الكومندور الياس توتونجى ١٨٩٠ — ١٩٤٧ .

١٠ — جهود النقابة الزراعية المصرية العامة فى ثلاثين عاما يقدمها الدكتور يوسف نحاس سنة ١٩٥٢ .

١١ — ذكريات (سعد . عبد العزيز . ماهر ورفاقه فى ثورة سنة ١٩١٩ . تصرفات حكومية) بقلم الدكتور يوسف نحاس سنة ١٩٥٢ .